بين الصراع والتعدد

يخطئ الفكر الإسلامى المعاصر خطأ جوهرياً عندما يناقش موضوعاته ومشاكله [1] بعيداً عن الإطار العام لها ألا وهو الذاتية الإسلامية وصراع الحضارات .

إن ما يحكى عنه بعض الكتاب عن اعتراف الإسلام بتعددية الأديان أو تعددية الحضارات ، إنما هو نوع من الخلط أو الإبهام .

فالتعددية التى جاء الاعتراف بها فى الإسلام إنما هى تعددية الأمر الواقع ، وليست تعددية الأمر التكليفى ، أو ما ينبغى أن يكون .

تعددية الأمر الواقع فى الأديان كما فى قوله تعالى ﴿ **لكم دينكم ولى دين .** ﴾ .

تعددية الأمر الواقع فى الشرائع كما فى قوله تعالى ـ وهو بصدد توجيه الرسول ﷺ فى التعامل مع أهل الكتاب : ـ ﴿ **فأحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ، ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ، ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فأستبقوا الخيرات ، إلى الله مرجعكم جميعاً ، فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون .** ﴾ .

وهى تعددية الأمر الواقع فى الحضارات فى قوله تعالى ﴿ **ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ، ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز .** ﴾ .

تعددية الأمر الواقع بين إيمان وإسلام وإحسان فى جهة ، وكفر ونفاق وفساد ومعصية فى جهة أخرى ، وليست تعددية الأمر التكليفى المطلوب ولا تعددية الأمر الذى ينبغى أن يكون .

ففى الإسلام ﴿ **إن الدين عند الله الإسلام** ﴾ ، ﴿ **ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يُقبل منه .** ﴾ .

---

[1] كمشكلة الاقتصاد والتربية والاعلام والجهاد ... إلخ .

﴿ قل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها ، وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا . ﴾ ٢٩ الكهف ، ﴿ وكم أهلكنا قبلهم من قرنٍ هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا . ﴾ ٩٨ مريم .

وفى الأمر الذى ينبغى أن يكون ليس إلا شريعة واحدة بين الأنبياء جميعاً .

ولا تختلف بين نبى ونبى ، ورسالة هنا ورسالة هناك إلا اختلافاً عارضاً ـ بحسب الاختلاف فيها بين عالمية ومحلية ، وخالدة ومؤقتة ـ اختلافاً لا يستحق الخلاف " كما يفيد ذلك قوله تعالى ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه . ﴾ .

وفى الأمر الذى ينبغى أن يكون ليس إلا حكم الله وحده ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون . ﴾ ... ﴿ فأولئك هم الفاسقون ﴾ ... { فأولئك هم الظالمون . ﴾ .

وفى الأمر الذى ينبغى أن يكون ليس إلا حضارة واحدة ﴿ إنى جاعل فى الأرض خليفة ﴾ ... ﴿ ولينصرن الله من ينصره . ﴾ .. ﴿ وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ، ألا إنهم هم المفسدون ، ولكن لا يشعرون . ﴾ .

الاختلاف الموضوعى بين الحضارتين :

وعلى هذا الأساس ـ من الاعتراف بذاتية الإسلام ـ علينا أن نعترف بأن هناك تناقضاً بين النسق الإسلامى ـ أو بتعبير آخر بين الحضارة الإسلامية ـ والحضارة التى تسمى " غربية تارة ، وأوربية تارة ، وعالمية تارة أخرى " .

وهو إذن تناقض موضوعى : تماماً كما يكون التناقض بين المحافظة على " ذات " فى مقابل المحافظة على " ذات " أخرى .

ويخطئ من يظن أن هذا التناقض ـ أو الصراع ـ يرجع ـ فحسب ـ إلى ثأر تاريخى ، أو كراهية انفعالية متبادلة أو إلى سوء الفهم [1] بين الجانبين .

كلا ليس الأمر كذلك .

ليست القضية أننا طرنادهم من الشرق الأوسط قديماً ، حيث هو فى نظرهم قد كان مستعمرة أوربية : يونانية ، ثم رومانية ، لقرون طويلة ، ثم قضى عليها الإسلام .

وليست القضية أننا طرنادهم ـ كما يعتقدون ـ من الجزيرة العربية ، تلك التى يقول عنها القس الشهير " زويمر " ؛ : إن للمسيح الحق فى استرجاع الجزيرة العربية ؛ ـ نعم هكذا ـ أو طبقاً لقول القس جيمس كانتين مؤسس الإرسالية الأمريكية عام ١٨٨٩ (إن من واجبنا أن نعيد (!!) هذه المنطقة إلى أحضان المسيحية) .

ليست القضية أننا أنزلنا المسيح إلى منصب النبوة ، وحرمناه مجد الألوهية .

وليست القضية أنهم ضربونا بقبضات شديدة استمرت قرنين فيما يسمى الحروب الصليبية .

وليست القضية أنهم افتروا على الله الكذب وشتموا رسول الله ، وهتكوا مقدساتنا ، وقذفوا أمهاتنا وكتبوا فى أعراضنا ما لم يكتبه " اليهود " عن " مريم " .

وليست القضية أنهم طردونا من الأندلس ، أو أزاحونا من على حدود فرنسا ، أو أزهقوا وجودنا فى مناطق من أوربا الشرقية وشمال البحر الأبيض المتوسط ..

---

[1] بل الأمر على العكس .. وسنبين فى هذا الفصل والذى يليه أن القضية ليست قضية سوء فهم منهم أو سوء عرض منا ...

وليست القضية أنهم يسفحون دماءنا فى افريقيا ، وأوربا ، ويقطعون شرايينا فى آسيا ، ويتركونها تسفح أنهاراً وجداول ..

وليست القضية أنهم أخرجوا فلذات أكبادنا من فلسطين ويستوردون إليها من لا يكادون يعرفون أكثر من أسماء قبائلهم ممن يسمون " الفلاشا " ..

ليست القضية ذلك فحسب .

لو أن القضية كانت ذلك ـ فحسب ـ لجاز لبعض أبواقهم أن يخدروا وعينا بكلام عن نسيان الماضى ، وتصفية الأحقاد ، واستقبال النظام العالمى الجديد " بأيد متشابكة وقلوب مفتوحة " ..

كـــلا ...

إن التناقض بين ذاتية الحضارة الإسلامية ، وذاتية تلكم الحضارة الغربية ، أو " الأوربية ، أو " العالمية " تناقض موضوعى تحركه النظرة إلى المستقبل ، أكثر مما تحركه مواريث التاريخ ، أو عقم الحاضر ...

تناقض يتحرك بطبيعته من كونهما حضارتين متنافستين على "المستقبل " .

حضارتين تتصف كل منهما " بالعالمية " ...

فالإسلام دين " عالمى " وحضارة عالمية .

وهذه الحضارة ـ الغربية ـ تعلن على الأشهاد أنها حضارة " إنسانية" وتصدر إلى أنحاء العالم قيمها ومفاهيمها فيما تسميه " الديموقراطية " و"حقوق الإنسان " و" قرارات مجلس الأمن " .

حضارة أخذت تدس أنفها فى كل دولة ، ومدينة ، وشارع ، وزقاق ، وبيت ... "

أخذت تقول : نعم ، وتقول : لا ، فى شئون السياسة والاقتصاد ، والتربية ، والاعلام ، والحرب ، والثقافة والرياضة ، وأوقات العمل ، وأوقات الفراغ ..

وهى تتسرب بكلمتها تلك تحت شعار " العالم الذى أصبح كقرية " عن طريق : الخبر ، والجندى ، والكمبيوتر ، والقروض ، والمنتديات ، والمؤتمرات [1] ، ومراكز البحوث ، والسلام الزائف ... " .

وهى مستعدة لإدخال كلمتها عن طريق النظريات المزيفة عن " نهاية التاريخ " ، وفوكوياما ، أو عن طريق كلمة وقحة لمأجور مؤتمرات يقول لك: أنت تأكل خبزهم فيكف ترفض " هُمْ " !

نـــعـــم

نعم ، حضارة تزعم أنها إنسانية ، عالمية ، والإسلام رسالة عالمية أيضاً .

ومن هنا كان التناقض شيئاً غير قابل للنسيان .

كان التناقض بين حضارتهم وبين الإسلام ـ كدين وحضارة ـ تناقضاً موضوعياً ، ومعركة على " المستقبل " .

وللاسف فإنهم يدركون هذه الحقيقة أكثر مما ندركها نحن ...

فهم أساتذة " تاريخاً " الذى نتعلمه منهم ...

وهم أساتذة الاجتماع والنفس ..

وهم أساتذة الاقتصاد ...

وأساتذة الفلك والفضاء ...

وهم أساتذة الاستراتيجية ، والسياسة ، والحضارة ...

هم يدركون بمقتضى استاذيتهم لعلم الحضارة : أنه لا مكان فى العالم لحضارتين " عالميتين " ... إلا أن يقع بينهما تنافس ، وتزاحم ، وتدافع ، وتآكل فى الحدود ، وصراع على محل " القلب " ..

---

[1] أنظر مقال محمد حسنين هيكل الذى تضمن بياناً عن معركة تطويع العقل المصرى لقبول الصلح مع إسرائيل ، وكيف انفق الغرب على هذه المؤتمرات فى مدى عامين أو ثلاثة ما يساوى " تكاليف حرب كبرى : جريدة الخليج ١٩٩٦/٥/٢١ .

وإذن فسيلعنهم تاريخهم إن تركوا فريستهم ـ نحن ـ بعد أن اصطكت الركب ، وناخت الأقدام ...

إنهم يدركون هذه الحقيقة ويحسبون أنهم يلعبون " الآن " الدور الأخير في معركتهم مع هذه الحضارة " الإسلامية " ليقذفوا بها إلى مكان سبق أن قذفوا إليه " الهنود الحمر " !!

هم يدركون هذه الحقيقة ويعلمون ـ أكثر مما علموا عن الهنود الحمر ـ أنهم يتعاملون مع حضارة " عاتية " دوختهم واستعصت عليهم ـ في وقت أصبح فيه وُرّاث هذه الحضارة في أضعف حالاتهم وأحط أحوالهم ..

ولذا فإن ضعفنا لا ينسيهم خطورة حضارتنا ، ولا ينسيهم خطورة انبعاث هذه الحضارة مرة أخرى .

إن ضعفنا ـ الذى يعيرنا به أفراد منا يسيلون بكلماتهم كما يسيل الحوض بالماء النازل فيه ـ هذا الضعف لا ينسيهم قصوانية المعركة التى تدور ، ولكنه يُسيّل لعابهم لضربتنا الضربة الأخيرة ، وللقضاء علينا القضاء النهائى .

إنهم يعتقدون أنهم أمام الفرصة التاريخية التى إن أضاعوها فسوف تدور الدائرة عليهم من جديد .

لـــذا

فإنهم يصفّوننا جغرافياً ، ويصفّوننا جسدياً ، ويصفّوننا تاريخياً ، ويصفّوننا حضارياً ..

يزهقون قطرات الدم الأخيرة من عروق حضارتنا من حقيقة ذاتنا .

من جوهر وجودنا .

إنهم يدركون أن المعركة معركة حضارية موضوعية بين حضارتين عالميتين تتقاتلان على " المستقبل " .

ومن هنا فإنهم يلعبون معنا اللعبة بوجه جامد ، وعصب بارد ، وبسمة " المشفق " على " الذبيح " .

كأنه يقول : لماذا تتعب نفسك ، وتتعبنا معك ، فأنت قدرنا ، ونحن لا نتركك .. فتعال ساعدنا على أن ندخلك أحضان الفناء .

إنهم يقتلوننا ، نعم .

وهم يقتلوننا بإشفاق ؟

نـــعـــم !!

لأن نظرتهم إلى القضاء علينا نظرة موضوعية !!

تماماً كالذى يذبح شاة ..

ويربت على وجهها ، وربما ... يقبلها ، ثم يذبح !!

هكذا حالهم معنا ، وهكذا حالنا معهم !!

يقتلوننا بالمذاهب الفلسفية ، وبالروح العلمية ، ومناهج البحث .

يقتلوننا ويستغربون : لماذا لا نُقتَل ؟ !

وللأسف ـ الذى يصل إلى حد الكارثة ـ ينخدع البعض منا ببسمة القاتل ، فينهضون إلى مساعدته بهدهدة الذبيح .

نعم ؛ ولقد ساعدناهم ، وساعدناهم من قبل كثيراً .

ساعدناهم بالاعتداء على ذاتية الإسلام .

ساعدناهم بتفكيك النسق الإسلامى .

وساعدناهم بتزييف " الكلمات " و " المصطلحات " الإسلامية .

أفهمونا أن العرب قد جاء إلينا من أجل " الاستعمار " .

وابتلعنا الكلمة ، وقد كان الصحيح أن يقولوا إنه جاء إلينا من أجل "الاستخراب "

وأفهمونا أن استعمارهم ـ أو استخرابهم ـ هو من أجل " القطن " ، لتشغيل مصانع النسيج فى يوركشاير ؟

والآن ماذا بعد " القطن " ؟

وأفهمونا أن استعمارهم ـ أو استخرابهم ـ هو من أجل قناة السويس .

والآن ماذا بعد قناة السويس .. ؟

وأفهمونا أن استعمارهم ـ أو استخرابهم ـ قد جاء من أجل البترول .

والآن ـ أو بعد الآن ـ ماذا يكون بعد البترول ؟ !

" تعمية " على الهدف فى عملية الصراع الحضارى ؟!

ذلك أنه قد كان لنا ـ وما يزال ـ زعماء فكرهم خريجو كلية فكتوريا، والميردى دييه ، وقهاوى باريس ، وشارع الشانزلزييه ، وقبعات التخرج فى عقر جامعاتنا !!

فلم يكن لفمهم ـ وهو ممتلئ بشرابهم ـ أن ينطق بأن القضية صراع حضارات .

وعندما ظهرت الكلمة بعد أن انكشف الغطاء ـ فى صراعنا معهم ـ عن التأخر الحضارى الذى " نتمتع " به ، ... بعد أن ظهرت الكلمة وأنها " صراع الحضارات " ، جرى تزييفها مرة أخرى فقالوا : هو صراع حضارى ؛ ولكنه يعنى أن " نتحضر " مثلهم .

أن نعيش كما يعيشون .

ونلبس البذلة كما يلبسون .

ونحلق الذقن كما يحلقون .

ونأكل بالشوكة كما يأكلون .

أن نتحضر بمثل ما يتحضرون .

وليتهم أرادوا من ذلك أن نأخذ من حضارتهم " الوسائل " التى تعيد الحياة إلى حضارتنا ، والقوة إلى " وجودنا " ؛ والسلامة إلى " نسقنا " !!

لا

ولكنهم يهدفون إلى أن نخسر حضارتنا ، ونعيش بحضارتهم .

أزاحوا الفهم الصحيح لحقيقة صراع الحضارات وأنه صراع يدور بين حضارتين تتمتع إحداهما ـ اليوم ـ بالسيادة على العالم ، وتنزوى أخراهما فى جمود .

صراع بين حضارتين ، إحداهما يمكن أن نسميها " إنسانية " بحق !! أى يستقل بها الإنسان فلسفة وتوجهاً ، وتطبيقاً ، وأخرى " إسلامية " إلهية !!

نعم : فالإسلام دين حضارة ؛ وقد وضع حجر الحضارة الإسلامية على الأرض فى تلك الزاوية التى كتب عليها قوله تعالى ﴿ **إنى جاعل فى الأرض خليفة .** ﴾ .

فالحضارة وفقاً للمفهوم الإسلامى مراد إلهى ، يصنع وفق التكليف الإلهى ، وقيام حضارة مقابلة تتصف بالإنسانية دون " الإلهية " ، هو إعلان لمعركة حضارية موضوعية بالمفهوم الصحيح لهذه الكلمة .

لن تنتهى هذه المعركة فى تصورهم إلا بإبادة الإسلام وحضارة الإسلام .

ولن تنتهى فى تصورنا إلا بصنع الحضارة وفقاً للتكليف الشرعى .

رؤية تاريخية للصراع :

فى ظل هذا التصور عن الصراع الموضوعى المستقبلى بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية يصبح من الطبيعى أن تستحضر النظرة الماضوية عن هذا الصراع من أجل تجنيدها فى معركة لا مفر منها .

الحروب الصليبية :

سقوط الأندلس ...

سقوط الدولة العثمانية ...

تفكك القوميات ...

هجوم الاستعمار ..

زرع العلمانية فى قلب الأمة وأحشائها .

الهجوم الصريح على الإسلام ...

تزييف الإسلام ومحاولة صنع ' الإسلام الجديد ' الذى أوصت به مؤتمرات التبشير .

تزييف فى الاقتصاد . ، فى التربية فى اللغة ، فى الأدب ، فى الفن فى الأخلاق ...

وصولاً إلى تشويه الذاتية الإسلامية ثم القضاء عليها فى معركتها الأخيرة :

زحفاً من الشمال بكتيبة إسرائيلية ... أو صربية ..

وزحفاً من الجنوب بكتيبة تنصيرية... أو وثنية ...

وإطباقاً فى النهاية على مصر .

ثم الجزيرة !!

وهنا تنتهى ـ فى حسبانهم ـ الحروب الصليبية !

لكن هل ينتهى التاريخ ؟!

قائمة سوداء غليظة السواد ، منقوعة فى السم ، ملطخة بالدم ، مصنوعة من الأشلاء ...

والحق أن عداءهم لنا لم ينشأ مع ظهور الإسلام ـ وإن كان قد تضاعف معه ـ ولكنه كان قبل الإسلام ، ومع قوة الإسلام والآن ..

أتعرفون ماذا قال هيرودت عن طريقة جمع أحجار الأهرامات ؟ أتعرفون كيف اغتصب اسم " مصر " على أيديهم فصار إيجبت بينما إسم مصر هو هو منذ وجود الهيروغليفية والعبرية والفينيقية والآرامية والأشورية ؟

أتعرفون كيف أطلقت أكذوبة " مصر هبة النيل " لتحرم المصريين من شرف العمل والكفاح والجهد الذى كان وسيلة ترويض هذا النيل وتهذيبه والاستفادة منه ؟

كم من شعوب مر عليها النيل فلم يجعل منها هبته ؟

إنهم هم المصريون الذين اضطهدوا على يد الفتح الاسكندرى (اليونان ـ البطالمة) ثم على يد الرومان حتى تخلصت مصر من اضطهادهم على يد الإسلام ؟

وصل اضطهاد الرومان للمصريين والتنكيل بهم الذروة فى عصر الامبراطور ــ دقلديانوس (٢٨٤ م) فكانت أول سنة من حكمه مبدأ اتخذه المصريون لتقويمهم المعروف بتاريخ الشهداء أو التقويم القبطى ؟

ثم استمر الاضطهاد بعد ذلك أربعة قرون تقريباً كانت حصيلتها نشأة الرهبانية وفرارها إلى جبل المقطم وغيره من الصحارى وإنشاء الأديرة ؟

وجاء الإسلام فأرجع إلى مصر اسمها وأمنها وسلامها وحرمتها ؟

ولم يكن العرب غرباء على مصر قبل الإسلام : اسألوا الجيولوجيا يقول لكم إن صحراء مصر الشرقية جزء من التكوين الخاص بالبلاد العربية، والبحر الأحمر ليس إلا أخدوداً أو شقا بين الجانبين .

واقرءوا سورة الفجر لتروا كيف جمع القرآن الكريم بين العرب البائدة ومصر (عاد وثمود ... ومصر) .

﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعاد ، إرم ذات العماد ، التى لم يخلق مثلها فى البلاد ، وثمود الذين جابوا الصخر بالواد ، وفرعون ذى الأوتاد الذين طغوا فى البلاد فأكثروا فيها الفساد . ﴾.

عداؤهم لنا بين سوء العرض وسوء الفهم :

ليست القضية أن المسلمين هم المسئولون عن عداء الغرب لهم ، حيث يسيئون عرضهم للإسلام ...

ولكنها على العكس من ذلك ، أنهم فى الغرب يتجاوزون سوء العرض هذا ويذهبون إلى عمق علاقتهم بالحضارة الإسلامية ؛ باعتبارها خطراً موضوعياً على حضارتهم . إنه من السطحية والسذاجة ــ إن لم يكن من التآمر ــ أن يظن البعض منا أن المسألة ترجع إلى طريقة عرض الإسلام... وتنتهى المشكلة .

وإلا فإنه فى كل دين ، وفى كل مذهب ، وفى كل نظرية ، وفى كل أيديولوجية هناك من يسئ العرض ، ولا أحد من الجادين يتوقف عند أولئك

الذين ينبتون على هامش هذه الأديان والمذاهب ممن يسئون العرض ؛ جهلاً أو قصداً ....

فى المسيحية هناك من يسئ العرض .

وفى الديموقراطية هناك من يسئ العرض .

وفى الليبرالية هناك من يسئ العرض .

وفى الاشتراكية هناك من يسئ العرض .

ولا تكون هناك نهاية المطاف .

ويبتلى الإسلام بمن يسئ العرض من المبشرين والمستشرقين والجهلاء ..

تماماً كما هو الحال مع غيره ، لكنه هو وحده الذى يقولون عنه : لولا سوء العرض ...

يا سادة : لا تضيفوا إلى سوء العرض سوء الظن ...

يا سادة : إن فى الغرب رجالاً يحققون ، ويدققون ويذهبون إلى المصادر الأصلية ، كعلماء وخبراء وفلاسفة ، واعلاميين ....

فما هى القضية إذن ..

ليست القضية إذن قضية سوء فهم ، أو سوء عرض ..

فما هى القضية إذن : ؟

القضية أنهم هناك يدركون الخطر الموضوعى الذى يأتيهم من انبعاث الحضارة الإسلامية مرة أخرى ، ثم يذهبون يشوشون على منطلقاتهم وأهدافهم ويستأجرون العملاء من سماسرة الثقافة والاعلام ليشيعوا مقولات ساذجة تبعدنا عن أصل المشكلة وتضللنا عن جوهر القضية .

وإلا فقولوا لنا هل كان أرنست رينان متأثراً بسوء عرض الجهلاء منا للإسلام وهو يقدم كراهيته للإسلام فى ذورته الأكاديمية :

إذ يقول فى خطاب افتتاحى فى الكوليج دوفرانس حول تصنيف الشعوب السامية فى تاريخ الحضارة ... الشرط الأساسى لتمكين الحضارة

الأوربية من الانتشار هو تدمير كل ماله صلة بالسامية الحقة : تدمير سلطة الإسلام الثيروقراطية ، لأن الإسلام لا يستطيع البقاء إلا كدين رسمى ، وعندما يختزل إلى وضع دين حر وفردى فإنه سينقرض . هذه الحرب الدائمة، الحرب التى لن تتوقف إلا عندما يموت آخر أولاد إسماعيل بؤسا ، أو يرغمه الارهاب (!!) على أن ينتبذ فى الصحراء مكاناً قصيا .

الاسلام هو النفى الكامل لأوربا ، الإسلام هو التعصب ، الإسلام هو احتقار العلم ، القضاء على المجتمع المدنى ، إنه سذاجة الفكر السامى المرعبة ، يضيّق الفكر الإنسانى ، يغلقه دون كل فكرة دقيقة دون كل عاطفة لطيفة ، دون كل بحث عقلانى ، ليضعه أمام حشو سرمدى : " الله هو الله "

المستقبل هو إذن لأوربا ولأوربا وحدها ، ستفتح أوربا العالم ، وتنشر فيه الدين الذى هو الحق، الحرية ، احترام البشر ، هذا الاعتقاد القائل بأن ثمة شيئاً ما إلهياً فى صلب الإنسانية .) [1] .

أو فقولوا لنا لماذا يكتب " باول شمتز " مثلاً فى كتابه " الإسلام قوة الغد العالمية " ـ قبيل الحرب العالمية الثانية ـ ليُحذر من تواكب الحركة الإسلامية مع الحركة القومية الإسلامية " وما يمثله ذلك من خطر محدق بالغرب !!

يقول المؤلف (إن انتفاضة العالم الإسلامى صوت نذير لأوربا ، وهتاف يجوب آفاقها يدعو إلى التجمع والتساند الأوربى لمواجهة هذا العملاق الذى بدأ يصحو ويزيل النوم عن عينيه . هل يسمع الهتاف أحد ؟ ألا من يجيب [2] .)

حتى أنه يقلل من أهمية افتقاد العالم الإسلامى للتقدم التكنولوجى فى هذه المعركة التى ينذر قومه بها ، إذ يقول (من الممكن أن يعارض المرء

---

[1] كتاب " الإسلام اليوم لمارسيل بوازار " بحث الحبيب الشطى الأمين العام لمنظمة المؤتمر الإسلامى ووزير خارجية تونس الأسبق صـ ٣٤ ـ ٣٥ طبعة ١٩٨٦ ـ اليونسكو .

[2] " الإسلام قوة الغد " ترجمة د. محمد عبد الغنى شامة صـ ٣٥٦ .

هذا الرأى .. فإن الإسلام فقد سيطرته على بعض الأشياء المادية ، وخاصة ما يتصل بالحرب ، فهو لم يلحق بالتقدم التكنولوجى الحديث . ولا أستطيع أن أدرك لماذا لم يعوض الشرق الإسلامى ما فاته فى هذا الميدان ، إذ لا تحتاج العلوم الحديثة إلى طبيعة عقلية خاصة ، بل يتطلب الالمام بها والتفوق فيها الخبرة وتوجيه الخبراء ، ومن المؤكد أنه غالباً ما يحدث أن تكون حضارة ذات منزلة عالية فى التقدم التكنولوجى .. هى أقل درجة من حضارة أخرى لم تبلغ تطورها بعد فى هذا المجال ما بلغته الأولى ، إذن فهناك احتمال كبير فى أن يصبح شعب ظهر حتى الآن أن مواهبه فى الناحية التكنولوجية ضعيفة سيداً على شعب آخر استولت التكنولوجيا على حواسه ومشاعره ، فلم ينقذه أحد .. لماذا لا يتعلم العالم الإسلامى ما تعلمناه فى مجال التكنولوجيا ، وفى مقابل هذا : سوف يكون من الصعب علينا استعادة التعاليم الروحية التى فقدتها المسيحية ، بينما لم يزل الإسلام يحافظ عليها .) [1] .

ويبنى المؤلف تحذيره على ما يلمسه من مصادر القوة التى يملكها العالم الإسلامى ؛ وهى : الموقع الجغرافى ، والخصوبة البشرية ، والثروات والمواد الخام والدين الإسلامى (الذى له قوة سحرية على تجميع الأجناس البشرية تحت راية واحدة بعد إزالة الشعور بالتفرقة العنصرية من نفوسهم ، وله من الطاقة الروحية ما يدفع المؤمن به على الدفاع عن أرضه وثرواته ، بكل ما يملك مسترخصاً فى سبيل ذلك كل شئ حتى روحه .. يحرص على التضحية بها فداء لأوطان الإسلام .) .

ثم يتساءل : (أى قوة وجدانية بعثت هذه الإرادة اليوم فى الشرق ؟) ثم يجيب (قوة الوحدة الفكرية للإسلام ، ووجود الإحساس الحى للدين الإسلامى ، فهو ينتصر فى كل مكان ينزل فيه الميدان مع الأيديولوجيات الأخرى) .

---

[1] المصدر السابق صـ ٣٥٦ .

بل إنه ليستشعر الخطر من مجرد آداء المسلمين لفريضة الحج واتجاههم إلى القبلة فى صلواتهم .. إذ يقول (إن اتجاه المسلمين نحو مكة ـ وطن الإسلام ـ عامل من أهم العوامل فى تقوية وحدة الإتجاه الداخلى بين المسلمين ، وأسلوب يضفى على جميع نظم الحياة فى المجتمع الإسلامى طابع الوحدة ، وصفة التمسك .) [1] .

بل إن ناشر الكتاب الألمانى يقدم له بهذه العبارة (باول شمتز عاش فى القاهرة عدة سنوات ويعرف جيداً الأسس التى ينبثق عنها تطلع الشعوب الإسلامية إلى الاستقلال ، الذى يعد أهم مشكلة سياسية فى الوقت الحاضر ، وهذا الكتاب يوضح الخطر المتوهج الذى يمر عليه الإنسان فى أوربا بكل بساطة ، وفى غير اكتراث ، فأصحاب الإيمان بالإسلام يقفون اليوم (قبيل الحرب العالمية الثانية) فى جبهة موحدة معادية للغرب ... وهذا الكتاب هو نداء وتحذير يجب أن يلقى الاحترام الجدى من أجل مصالح الغرب وحدها [2] .) .

هكـــذا

فهل كتب باول شمتز ما كتب لما وجده من سوء عرض للإسلام يرتكبه بعض الجهلاء من هنا أو من هناك ؟ !!!

أو فقولوا لماذ نشر المفكر الأمريكى " صامويل هانتنجتون " الأستاذ بجامعة هارفارد كتابة المعروف باسم (صدام الحضارات) وفيه يبشر لصدام مستقبلى هائل بين الديانات والثقافات الحديثة ممثلة فى الثقافة الأوربية الأمريكية الغربية من ناحية ، وبين الديانات والثقافات القديمة .. لكنه خص الحضارة العربية الإسلامية بأكثر قدر من التركيز لأنها ـ كما يعتقد ـ ستكون أولى تلك الحضارات القديمة وأقدرها على الازدهار وتحدى الغرب قريباً .. ولذلك يقول الرجل : يجب على الغرب الاستعداد من الآن لصدام المستقبل

---

[1] المصدر السابق صـ ٩٢ .

[2] المصدر السابق صـ ١١ .

هذا ، بل العمل على إجهاض قوة الحضارات الأخرى ، خاصة الإسلامية قبل أن تكتمل .) .

وهناك دراسة أخرى نشرتها مجلة الايكونومست البريطانية فى ٨ يناير عام ١٩٩٤ ، ركزت على أن مستقبل العالم مهدد بقوتين كامنتين أمامهما فرصة البزوغ ، بل الصدام مع الآخرين : هما اليابان والقوة الإسلامية المنتظرة [١] !

وها هو الرئيس الأسبق للولايات المتحدة الأمريكية ـــ ريتشارد نيكسون : يدرك السمة الحضارية للإسلام ، حيث يقول (إن الإسلام ليس ديناً فقط ، وإنما هو أساس حضارة رئيسية ، إننا نتحدث عن العالم الإسلامى بصفته كياناً واحداً ـ ليس لأن هناك مكتباً إسلامياً يوجه سياساته ، ولكن لأن الدول منفردة تشترك فى اتجاهات سياسية وثقافية مشتركة مع الحضارة الإسلامية ككل .) [٢] .

فهل فهم نيكسون ذلك من سوء العرض للإسلام ؟

ثم يقول ريتشارد نيكسون : (للعمل فى العالم الإسلامى فإن على صناع السياسة الأمريكية المناورة داخل وكر أفعى من سم النزاعات الأيديولوجية والصراعات الوطنية) [٣] .

والمدهش أنه يعترف بعد ذلك بأن بعض الأمريكيين (يتغاضون عن حقيقة أن الإسلام لا يشمل مبدأ ارهاب وأن ثلاثة قرون قد مرت منذ أن انشغل المسيحيون فى حروب دينية فى أوربا .) [٤] .

ثم يعترف بفضل الحضارة الإسلامية فيقول : (بينما ذبلت أوربا فى العصور الوسطى تمتعت الحضارة الإسلامية بعصرها الذهبى ، وقد أسهم الإسلام بمجهودات هائلة فى مجال العلوم والطب ، والفلسفة ، وفى كتابه

---

[١] مقال صلاح حافظ ـ الخليج ١٩٩٤/٢/٢٥ .

[٢] انتهزوا الفرصة ـ ترجمة حاتم غانم ، طبعة فبراير ١٩٩٢ صـ ٤٠ .

[٣] انتهزوا الفرصة صـ ٤٥ .

[٤] انتهزوا الفرصة صـ ٤٣ .

"عصر الإيمان " لاحظ ول ديورانت أن الإنجازات الهامة فى كل الميادين قد تحققت على يد مسلمين فى هذه الفترة ، وكان ابن سينا أعظم الكتاب فى الطب ، والرازى أعظم طبيب ، والبيرونى أعظم جغرافى ، وابن الهيثم أعظم صانع للآلات البصرية ، وجابر أعظم كيميائى .. وكان العلماء العرب فاعلين فى تطوير الفكرة العلمية .. وعندما دفع الرجال العظام من عصر النهضة الأوربية إلى الأمام حدود المعرفة .. فقد رأوا أكثر لأنهم وقفوا على أكتاف العمالقة من العالم الإسلامى .) [1] .

ثم يقول ريتشارد نيكسون (إن حضارتنا ليست متفوقة على حضارتهم الموروثة ، إن شعوب العالم الإسلامى كانوا أكثر مقاومة لجاذبية الشيوعية من مقاومة أولئك فى الغرب ، وإن رفضهم الواسع للمادية وثقافة الغرب الأخلاقية المسموح بها ـ أى فى الغرب ـ رجعت عليهم بالفضل .) .

وطيلة خمسة قرون من ٧٠٠ إلى ١٢٠٠ م ـ كما يقول نيكسون ـ فإن العالم الإسلامى تقدم وتفوق على العالم المسيحى فيما يتعلق بالقوة الجيوبوليتيكية ، ومستوى المعيشة ، والمسئولية الدينية ، وتقدم القوانين ، ومستوى تعلم الفلسفة ، والعلوم والثقافة .

ثم يرجع انحسار الحضارة الإسلامية إلى انتصارها فى الحروب الصليبية ، كما يرجع تفوق الغرب إلى انهزامه إذ يقول (إن عقوداً من الحرب قلبت الطاولات ، وكما كتب ديورانت : إن الغرب خسر الحرب الصليبية ، لكنه ربح العقائد (!!) ، وتم طرد كل محارب مسيحى من أرض اليهودية والمسيحية المقدسة (كذا !!) . لكن الإسلام استنزف نتيجة انتصاره المتأخر ، ودمر وخرب على يد المغول ـ بالمقابل ـ فى عصر من ظلام الغموض والفقر ، بينما المهزوم مدفوعاً بالجهد ونسيان الهزيمة تعلم كثيراً من عدوه ، ورفع الكاتدرائيات فى السماء ، وعبر بحور العقل ، وحوّل لغاته الجديدة إلى لغة دانتى وفيلون ، وتحرك بروح معنوية عالية إلى النهضة)[2].

---

[1] صـ ٤٣ .

[2] انتهزوا الفرصة صـ ٧٦ .

فهل كتب نيكسون ما كتب تحت سوء عرض منا للإسلام .

وحين أصدر جان بيرك ترجمته لمعانى القرآن عام ١٩٩٠ نجده يبرر اهتمامه بتقديم معانى القرآن للغرب بقوله (لأن الكثير من المفكرين والناس الآن ينبذون الصورة المادية للحياة المعاصرة ، ويرفضون مجتمع الاستهلاك ، هذا المجتمع المادى المحض .. ويفضلون على المدنية المعاصرة مدنية الإسلام الروحية وينادون بالعودة إليها) ، ولما كان قد قدم فى ترجمته للقرآن الكريم معانى القرآن مشوهة فكأنه أراد أن يقول للمفكرين الغربيين الذين أصبحوا يرفضون حضارة الغرب الآن ويرون أنها على وشك الانهيار، لأنها فقدت الأساس الروحى والأخلاقى .. يريد أن يقول لهم : وهذا هو الإسلام أيضاً ملئ بالخرافات والتناقضات ..) الخ [١] .

أما جان بيرك نفسه فيكاد يلتمس لنفسه العذر فيما يكون قد حدث من مخالفة فى ترجمته للقرآن الكريم بالرجوع إلى وجوب الأخذ بالمنهج التاريخى إذ يقول : (يبقى صحيحاً القول بأن الديناميكية الدينية ذاتها تتطور عبر التاريخ ـ ليس فى مبادئها وأصولها بالطبع ، ولكن فى صياغتها وأشكالها وتطبيقاتها ، فتلك أشياء خاضعة للتأقلم والتطور وتختلف باختلاف العصور والأزمات) [٢] .

ومن الواضح لدينا أن استثناءه (المبادئ والأصول) من عملية التأقلم.. الخ ، ليس إلا تغطية لفظية للهدف ، الذى هو أيضال الديناميكية الدينية التاريخية إلى (صياغة) المبادئ والأصول ، وما ذلك إلا صياغة كلمات الله تعالى ما دمنا بصدد ترجمة القرآن الكريم !

وهذا المنهج التاريخى هو المدخل " الحديث " لنسف أصالة المسلمات الإسلامية .

---

[١] مقال رجب البنا صـ ٩ ، الأهرام ١٩٩٤/٣/٦ .

[٢] الأهرام ١٩٩٥/٧/٢٩ .

فهل ذهب جان بيرك إلى ذلك نتيجة سوء فهم أوسوء عرض .

أهو سوء عرض منا ذلك الذى جعل منصّراً مثل : بروس ج. نيكولز يدرك حقيقة الإسلام بدقة يغبط عليها حين يقول :

إن الإسلام هو أكثر من عقيدة دينية ، إنه نظام متكامل للحياة والدين. فالإسلام يدمج كل المؤسسات الدينية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية على أسس الإيمان والاقتناع والالتزام بقبول الله رباً ، والاستسلام كلية لإرادته ، ثم يستمر قائلاً :

(إن مركز الابداع فى الإسلام هو التوحيد ، أى الشهادة بأن لا إله إلا الله ، والتوحيد يعنى أن الله هو الخالق أو السبب الجوهرى لكل الوجود والنشاط ، ويؤكد أن الإنسان هو المسئول عن تحقيق إرادة الله) .

ثم يستمر قائلاً (ففى المؤتمر الإسلامى الدولى الذى عقد فى لندن فى نيسان (أبريل) ١٩٧٦م حول " الإسلام وتحديات العصر " ، تم تقديم الإسلام كنظام متكامل من القيم ومصدر إلهام لكل منجزات العلم والدراسات الإنسانية والمصدر الوحيد الراسخ للإيمان والسلوك .) [١] .

كيف يمكن القول إذن بأنهم يحاربون الإسلام لأنهم لم يفهموه .

إنظروا مثلاً إلى الفهم الصحيح للإسلام الذى يقدمه المنصر كينيث أ . كراج عن الإسلام ، حيث يقول :

(دعونا نواصل الحديث عن الجسور ، إن للقرآن والإنجيل أرضية مشتركة من الإيمان بالخلق : " هو (الله) الذى يقول كن فيكون " ، إن الخلق المبدع هو لله والأرض الطيبة كذلك ، والتى ينظر إليها على أنها مسكن الإنسان ومجال نشاطه و"الأمانة" التى حملها ، والإنسان هو " خليفة " الرب فى "حكم" النظام الطبيعى ، وهو فى ذلك مسير بإرادة إلهية ، وتفهم الغاية الإلهية

---

[١] أنظر كتاب " التنصير : خطة لغزو العالم الإسلامى " وهى تضم مجموعة أعمال المؤتمر الذى عقد عام ١٩٧٨ بكولورادوا بالولايات المتحدة الأمريكية ، ونشرته دار MARK ، ونشر بالعربية ..... صـ ٢١٤

بالنسبة للعالم من خلال تسخيره للإنسان الفلاح والزارع والتقنى والفنان والعالم الذى يمتلك ويستكشف ، ويستغل العالم بتفويض إلهى ، كما أنه يكون مسؤولاً عن أعماله هذه أمام الرب ، فالإنسان مخلوق أدنى من الرب ، وهو عبد للسلطة الإلهية ، وخليفة ومندوب فى مواجهة الطبيعة .

من هذا المنطلق توجد جوانب عديدة من الفهم المشترك تساعدنا على القيام باتخاذ الموقف الصحيح فى وجه كل ما من شأنه أن يتعدى على الكرامة الإنسانية والمجال الإلهى ، وليس فقط فيما يتعلق بالقضايا المعاصرة كالسلطة والبيئة ، والمسؤولية عن الموارد والعدل الاجتماعى والتراحم ، بل بأكثر من هذا ، والقرآن (سورة ٢ : ٣٣ وما بعدها) يرى أن الشيطان هو رأس الاتهام، فبعد أن اعترض على خلاقة الإنسان ، ثم تمرد على الرب لنفس السبب ، فإن هدفه التاريخى هو إغواء البشر وتشتيت وإفساد العمل البشرى والثقافة حتى يستطيع أن يثبت للرب خطأ ما قام به بتكريمه للدور الإنسانى ، وهذه الموضوعات مثيرة جداً ، وإذا كان من الواجب " أن ندع الرب يكون رباً " يجب علينا كذلك " أن نجعل الإنسان يكون إنساناً " . ومن هنا بالطبع كانت ضرورة الهدى كما يطلق عليه الإسلام ، والذى يسترشد به الإنسان فى أزمة مصيره عبر التاريخ ، ومن هنا أيضاً جاء تعاقب الأنبياء المرسلين لتحذيز وتوجيه الاستجابة البشرية ، إذن فالنظرة القرآنية إلى الأنبياء فى التاريخ لا تختلف كثيراً عن مرامى أمثلة المسيح عن الكرم والكرامين والرسل ، فخصوصية مهمة اليهود غير واردة ، ولكن مسؤولية الإنسان أمام الرب فى تسخير الطبيعة عبر التاريخ حقيقة هامة فى المفهوم الإسلامى للخلق، وفى مكانة النبوءة المتميزة فى التاريخ .

هنا تبرز بالطبع بعض العقبات ، ولكن قبل أن نتطرق إليها هنالك بعض السمات القرآنية الأخرى لمخلوقية الإنسان الأساسية ، والتى تساعدنا فى مهمتنا ، فالطبيعة تحت وصاية الإنسان هى بالنسبة للقرآن دنيا من الآيات، وهذا اللفظ موجود فى كل صفحة من صفحات القرآن تقريباً ، إن

الآيات تشد الانتباه ، وهذا هو أساس العلم كله فالإنسان يلاحظ ويراقب ويصنف ، ثم يسخر الظواهر الطبيعية ، والإسلام هنا يشعر بالفخر والاعتزاز فى تشجيعه السيادة الإنسانية من خلال اليقظة الماهرة والقيام بالجهد اللازم وبكل دقة ، ونحن ننحنى لننتصر ، فالطبيعة لم تعط العلوم من خلال طرح بيانات معينة ، بل حقق ذلك الإنسان من خلال التساؤلات التى طرحها على الطبيعة "والتى" قامت بالرد عليها .

غير أن اليقظة التى تتطلبها هذه الآيات هى أكثر بكثير من كونها عقلانية .) .

ثم يقول : (إن النفور الموروث لا يزول بسهولة ، وكثيراً ما يؤكد القرآن على أنه قدم بطريقة تسهل على الناس فهمه ، فالقرآن ليس طلسماً قصد به إخفاء الحقيقة من خلال التعبير والأخبار ، كما تدعى ذلك فئة من الأحبار ، ونحن لن نندم إذا درسنا وتتبعنا جدية القرآن ، ومن ثم اكتشفنا الوجهة التى يقودنا إليها ، وبتسخير كل ما لدينا من صدق ودهاء من أجل المسيح علينا أن نتنبه إلى جدية القرآن ، وهذا شئ كان من المفروض أن نقوم به منذ زمن طويل جداً .) .

ثم يقول : (وهذه أمور بالطبع تتعلق بفهم الإنسان وفهم المسيح ، وهما مفهومان يكملان بعضهما بعضاً ، لقد رأينا كيف يشرع الإسلام فيما يخص الله ، والإنسان ، وإضافة إلى ذلك يرى القرآن أن هذا التشريع يلائم الطاعة فى وجود شروط معينة تمثلها بصورة عامة الدولة الإسلامية التى أنيط بها النظام السياسى منذ الهجرة ، ويأتى بعد ذلك نمط الحياة اليومى (الصلوات اليومية الخمس والصوم والحج والزكاة) ونظام التكافل الاجتماعى فى الأمة الإسلامية ، وعلى ضوء هذا وبالإضافة إلى فحوى التقاليد التى تدعمها وتعززها فقد نظر الإسلام إلى الإنسان على أنه يمكن أن يتحسن حتى يبلغ درجة الكمال ، فالإسلام واثق بأن التشريع فى القرآن والرحمة فى المجتمع والسنة التى يمكن أن تحتذى والانضباط فى الأنماط الاجتماعية

والرعاية التى يمكن أن يوفرها نظام الحكم الإسلامى ستكون كافية لتحقيق واجب الإنسان والدعوة الموجهة إليه لعبودية الله ....

إن الكتاب المقدس يركز بشكل كبير على مسألة الرحمة والغفران الكافية لأن نولد من جديد المسيح المصلوب ، وهنا فإن الكتاب المقدس الذى يدعو إلى أن عيسى هو المخلص يلزمه أن يواجه الحيرة الأساسية والكراهية الراسخة فى الإسلام لهذا المفهوم ، ولكن حتى هنا وبسبب صعوبة المهام التى نواجهها هنالك بعض الأمور اللاهوتية العقيدية التى ينبغى توضيحها .

انطلاقاً من مقطع هام فى القرآن (٤ : ١٥٧ وما يليها) ونتيجة لاعتبارات أخرى فى اللاهوت الإسلامى ، فإن الإسلام يرى :

أ - أن المسيح لم يصلب .

ب - أن الصلب ما كان من الواجب أن يحدث .

جـ - أن الصلب لا حاجة له أن يحدث .

فالإسلام ينكر حدوث الواقعة تاريخياً ويرفض احتمال حدوثها على أساس أخلاقى كما يرفض الضرورة لها على أساس عقائدى .) .

ثم يقول : (فالمسلمون يعتقدون أن يسوع ما كان ينبغى أن يتعذب بهذا المعنى الذى يتضمن عجز الرب فى الدفاع عن خادمه (بل وأكثر من هذا إن قلنا ابنه !) . ومن هذا المنطلق فإن الرب " يودع قدرته " فى حقيقة أن المسيح لم يمت علاوة على ذلك فإن تحمل عقاب الإثم نيابة عن الآخرين ليس من الأخلاق فى شئ . فالقرآن يقول ﴿ **ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى** ﴾ (سورة ٦ : ١٦٤) . إذ ليس من العدل معاقبة (أ) لذنب ارتكبه ، (ب) ، ولهذا فالمسلمون يشعرون بأن فكرة البديل النصرانية هى فكرة غير أخلاقية إلى حد بعيد .) .

ثم يقول : (ولكن هل هذه المعاناة التى تفتدى الإنسان ضرورية للقدرة الكلية الإلهية ، فالإسلام يقول أن رحمة الله تسع جميع مخلوقاته

والقرآن يؤكد : ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾ (٣٦:٨٢) . وهذا يعنى أن المغفرة الإلهية عمل مهيب يحدث دون جهد ، ولهذا فإن فكرة " المخلص " الذى " مكن " الرب من أن يغفر لنا توحى بالعجز الربانى ، فهل يحتاج الرب أبداً " للمساعدة " من أجل تحقيق إرادته ؟ وهذا يوضح أننا نحتاج لأن نكون فطنين وحذرين جداً فيما نقوله أثناء الدعوة خشية الوقوع فى مفاهيم خاطئة ، ما هى الطريقة التى يمكن أن نوضح بها " "ضرروة " الصليب باعتباره شكل ومضمون القدرة الربانية فى المغفرة ؟ هل يمكن لمغفرتنا ـ إذا جاز التعبير ـ أن تكون مشكلة الرب ؟ .) [1] .

إذن فالأمر فى دائرة التنصير لا يرجع إلى سوء الفهم ، أو سوء العرض ، ولكنه يرجع إلى ما يقول جورج بيترز فى بحثه بعنوان " نظرة شاملة عن إرساليات التنصير العاملة وسط المسلمين " .

(إننى أميل إلى الاتفاق مع فاندر وزويمر وفريتك وآخرين فيما ذهبوا إليه من الإسلام حركة دينية معادية للنصرانية ، مخططة تخطيطاً يفوق البشر لمقاومة إنجيل ربنا يسوع المسيح ، إن الإسلام هو الدين الوحيد الذى تناقض مصادره الأصلية أسس النصرانية ، وترفض بكل وضوح موثوقية وصحة الإنجيل وأبوة الرب ، وأن المسيح ابنه ، وضرورة موته وكفايته لمفهوم الخلاص ، وتبرير بعثه . إنه الخلاف الأكبر فى النصرانية وفى الكتاب المقدس أملنا فى الخلاص .

ولكن محرك هذا الخلاف هو الإسلام وليس النصرانية وفى ذات الوقت فالنظام الإسلامى هو أكثر النظم الدينية المتناسقة اجتماعياً وسياسياً ، ويفوق فى ذلك النظام الشيوعى (!!) ، ولكن هذه الحقيقة يجب ألا تحبط عزم

---

[1] أنظر المصدر السابق .

من صـ ٢٧٤ إلى صـ ٢٨١ .

المنصرين ... (ثم يقول : (إن الإله الموجود فينا !! أعظم الإله الموجود فى العالم ، وأعظم حتى من الإله الذى يتحدث عنه الدين الإسلامى .) [1] .

*****

فأين القضية إذن ؟

هل ترجع كما يشيع البعض إلى سوء الفهم أو سوء العرض ؟

وأنظروا ما جاء عن العداوة المغرضة التى تصل إلى جذور البرامج الدراسية فى الغرب : وقولوا لنا : هل تقررت بدافع سوء عرض منا للإسلام.

يقول مارسل بوازار : (فى الولايات المتحدة الأمريكية تتهم لجنة من جميعة دراسات الشرق الأوسط الكتب المدرسية برداءة الاعلام عن الإسلام ، وبالأخطاء فيما يتعلق بالوقائع التى تتضمنها عن المسلمين ، نتائج التحقيق الذى قامت به اللجنة مفزعة .. كتب التاريخ العام المدرسية تخصص عموماً ٨ ٪ على أبعد تقدير من محتواها للشرق الأدنى والأوسط ، معظم هذه المادة غير كافية ، فضلاً عن أنها تعالج أساساً الحضارات القديمة ، حضارات بلاد الرافدين ووادى النيل ولا تتحدث عملياً عن تاريخ الثقافة الإسلامية ، ومن جهة أخرى : محررو هذه الكتب المدرسية يُظهرون مثل المدرسين مسبقات كامنة ، معززة بتحرير ناقص ، وببحث قليل الدقة وبتقديم غير سديد، وهكذا فإن التلاميذ الأمريكيين عندما سئلوا لم يجيبوا عن الإسلام إلا كدين وكثيراً منهم زعموا أنهم لا يعرفون المسلمين إلا فى منظور حركة المسلمين السود " بلاك مسلم " .

وأجريت مؤخراً دراسة أخرى محددة جغرافياً بمنطقة واشنطن استنتج منها أن ١٥ ٪ فقط من الكتب المدرسية المتوافرة يمكن أن ينصح بها كأدوات تربوية ، أما الانتقادات الرئيسية فهى الآتية : ـ

---

[1] المصدر السابق : التنصير خطة لغزو العالم الإسلامى من صـ ٥٤٩ إلى صـ ٥٦٨ .

- قلما قدم الإسلام كإحدى ديانات التوحيد الكبرى فى العالم .
- حوكم التاريخ والحضارة العربية بميزان المعايير العرقية الخالصة .
- استخدمت قوالب فظة ، مقدمة فى أسلوب تحقيرى لوصف حضارة العرب.[1] .

وفى الكتب المدرسية الفرنسية :

يخص الرسول ﷺ الذى مازال يكتب بطريقة مغلوطة : ـ

بنعوت قيمية محددة .

محمد الفقير يشعر بالأمن بفضل زواجه .

وخلال سفره التقى بيهود ونصارى .

وبتكريسه أوقات فراغه للتأمل حصلت له رؤي " على طريقة الأنبياء" وقرر التبشير : بـ " الرب ـ الله . " .

أخرج من مكة فظل مشغولاً باسترجاعها .

منذ البداية التجأ للعنف .

مكنه فئة فى قيادة الجموع (!!) من توحيد أنصاره الذين زرع فيهم روح التعصب ووعدهم بالجنة إذا ماتوا فى سبيل " الحرب المقدسة " .

أما تقديم الإسلام ـ فى تلك الكتب المدرسية فإنه يجمع جميع القوالب: التعصب ، الخضوع ، الاهمال ، الاستسلام .. إلخ .. الإيمان الإسلامى ليس جديداً ـ قلد واستعار كثيراً ، خاصة من اليهودية ، عقيدته هى من أكثر العقائد بساطة ، وممارساته الثقافية محدودة جداً .

---

[1] أنظر كتاب " الإسلام اليوم " لمارسيل بوازار ، ترجمة ونشر اليونسكو ، صـ ٢٢ إلى صـ ٣٠ .

الفتح العربى يوصف دائماً بـ " الصاعق " كتاب مدرسى واحد أشار إلى أن دوافع التوسع لم تكن دينية حصرا ، أما بالنسبة للكتب الأخرى فتفسير ذلك هو فى الجبلة الحربية للعرب الذين أعمتهم رغبتهم فى فرض الإيمان على الكفار .

تضيف إلى ذلك بعض الكتب : الضعف الداخلى للدول التى ستفتح ، ورغبة البدو فى الخروج من الصحراء الحارقة للاستيلاء على المدن .

أدت الحرب المقدسة إلى صراع رهيب بين الصليب والهلال ، سبب المسلمون (الذين يسمون سراسنة) خراباً مخيفاً فى حوض البحر الأبيض المتوسط .

وأخيراً عندما يعالج مؤلفو هذه الكتب الثقافة الإسلامية لا يخشون الوقوع فى التناقض : بينما الحرب المقدسة قضت بالاختفاء على كل فرد غير مسلم .. نجد أن اليهود والمسيحيين فى الأراضى المفتوحة هم الذين كان لهم نصيب الأسد فى ميلاد الحضارة الإسلامية ، هذه الأخيرة التى ليست سوى اقتباس : خليط وانتحال .. طابعها الجوهرى هو افتقاد الأصالة .. لدرجة أن بعض الكتب المدرسية فى تمارينها ـ التى من المفروض أن تشغل فكر التلميذ النقدى ـ تطلب فى سؤال إيحائى أن يشرح : (فى أى مجال تفتقد الحضارة الإسلامية الأصالة ؟) .

كل شئ فيها تقليد : العلوم الطبيعية والإنسانية ، الفن ، الأدب ، وحتى المعمار ، ـ وهو مجال يعترف فيه للمسلمين ـ عادة ـ بالتفوق ـ ليست حسب الكتب المدرسية سوى تقليد .

وفى التعديلات التربوية الأخيرة التى أعدت فى فرنسا يبدو الإسلام كثقافة ماض " مشرّحة " وكدين للفقراء ، تمت مماثلته مع العمال المهاجرين غير المتخصصين : لم تعد صورة المجتمع صورة قوة تناحرية خطيرة ، كما تستخلصها الكتب المدرسية القديمة ، بل هى بالأحرى شبيهة بصورة حضارة ميتة تصدّر يدها العاملة .

هل يعود السبب لتبرير إيديولوجى ؟ أم لتأثيرات عرقية ؟ أم لقصور مؤلفى الكتب المدرسية ؟ يظل السؤال مطروحاً ، لكن مما لا شك فيه أن ظلماً دائماً انصب على الإسلام والمسلمين .) [1] .

إننا نؤكد أن هؤلاء عندما يختارون موقع العداء للإسلام وحضارته ، ويصفونه بوكر الأفعى ، كما فعل نيكسون ، فإن ذلك لا يرجع فى الأعم الأغلب ـ كما يشيع البعض ـ إلى سوء عرض منا ، أو سوء فهم منهم ، ولا يرجع إلى ما عليه حال المسلمين اليوم من تخلف ، أو ما عليه حال بعضهم من تطرف ، ولكنه يرجع إلى اختلاف جذرى فى أصول كل من الحضارتين، وفى الوقت الذى يدركون فيه ذلك يدركون تحرك كل منهما نحو العالمية ، فيجعلهم ذلك يفزعون إلى خططهم المدروسة فى الإساءة إلى الإسلام ، وتشويه صورته عمداً ، وبكل ما يملكون من وسائل الدفاع عن الذاتية الخاصة .

وشهد شاهد فى جريدة عصرية ، يقول :

(لا أعتقد أن الأحداث سبق أن تدافعت وتراكمت على الأمة العربية فى شكل سلسلة من التحديات المعقدة والمرهقة بمثل ما جرى فى الآونة الأخيرة .

حتى يبدو الأمر وكأننا قوم مستهدفون من الشرق والغرب على حد سواء .

وأنه بينما يعم المجتمع الدولى بأسره موجة من التفاؤل ....

فى ظل الوفاق العالمى بين القوتين ... فإن الأمر يبدو مغايراً تماماً فى عالمنا العربى [2] الذى هبت عليه رياح التشاؤم وتولدت فى ربوعه

---

[1] مارسيل بوازار : " الإسلام اليوم " صـ ٢٦ ـ ٢٩ .

[2] ولو أدرك جوهر القضية لقال الإسلامى : أنظر أفغانستان ، وباكستان والفلبين ، وقبرص وأريتريا ، وجنوب السودان .. إلخ .

أحاسيس القلق ، من مجرد رصد ما هو قادم إلينا وما يجرى تصديره لأوطاننا، بدءاً من هجرة اليهود السوفيت ، ومروراً بمحاولات تغيير الأوضاع القانونية لمدينة القدس [1] ، ووصولاً إلى النوايا الرامية لإبقاء بؤر التوتر على حالها كأنها أشبه بسرطان ينخر فى جسد الأمة ، سواء فى لبنان أو فى الخليج ، إضافة إلى ما يجرى فى الضفة والقطاع من ممارسات بربرية يشيب لها الولدان [2] .

ويشهد رئيس تحرير الجريدة فيقول .

(كان انزعاجنا شديداً ونحن نتحدث عن هجرة اليهود السوفيت إلى الأرض العربية المحتلة فى إسرائيل .

وكنا محقين فى انزعاجنا وتحسبنا للأخطار ، رغم أننا كنا نتخوف من هجرة عشرات أو بضع مئات الألوف ، وبحد أقصى نصف مليون مهاجر إلى إسرائيل خلال خمس سنوات .

الآن ماذا نقول وماذا نفعل وقد تكشفت الخيوط ، واتضحت معالم الصورة [3] فإذا بما كنا نتخوف منه من قبل لا يمثل إلا أقل القليل مما نتوعدنا به من مخاطر هذه المؤامرة الكبرى [4] .

إذن فهو خروج يهودى كبير آخر ، يذكرنا بالخروج اليهودى من أوربا فى أعقاب الحرب العالمية الثانية الذى اتجه إلى فلسطين الجريحة عام ١٩٤٧ وساهم فى صنع نكبتها ..) .

(إن القضية ليست قضية مخاطر تهدد شعب الضفة وغزة فقط ، ولا الشعب الفلسطينى ككل ، وإنما قضية مخاطر تهدد الدول العربية كلها .. بعضها مهدد بالخطر عاجلاً والآخر لن يتأخر طويلاً .) [5]

---

[1] يشير إلى قرار الكونجرس الأخير باعتبار القدس عاصمة موحدة لإسرائيل .

[2] مقال بالأهرام ١٩٩٠/٤/٥ صـ ٨ .

[3] معالم الصورة كانت واضحة منذ قيام إسرائيل فى خريطتها من النيل إلى الفرات !!

[4] إنها كبرى منذ الأندلس إلى تركيا إلى إسرائيل ..

[5] الأهرام ١٩٩٠/٤/٦ .

ويقول الصحفي الكبير صلاح الدين حافظ بعد رحلة إلى أمريكا : (إن الانحياز الأوربي الأمريكي للمسيحيين في " الشرق " عامة ، وفي " مصر " خاصة ، ليس حباً لذواتهم ، ولكن تحت تصور أنهم سلاح تفكيك لوحدة الأمة وعنصر طعن ضد الأغلبية .

وبقدر ماهناك في الغرب الأوربي الأمريكي من نقد أحياناً للإسلام والمسلمين ، فإن هناك أيضاً نقداً واضحاً لأقباط مصر على وجه الخصوص، وحين تساءلنا بعجب جاءت الإجابة أكثر عجباً .. ذلك أن أقباط مصر مازلوا يرفضون الانحياز " الأعمى " للمسيحيين " الأوربيين والأمريكيين ، ويفضلون بقاءهم كجزء من قوميتهم المصرية ، ومن حضارتهم العربية ..) .

ثم يقول صلاح الدين حافظ :

(علينا أن نستشرف المستقبل ونستعد له .

والمستقبل الذي أراه ـ بتواضع شديد ـ هو الذي سوف تعود فيه حركة التاريخ إلى الصدام التاريخي القديم .. صدام الغرب الأبيض مع الشرق الملون [1] .

خاصة إذا نجحت خطة تفكيك الاتحاد السوفيتي الجارية الآن ، لأنها تمثل التجربة الأولى وبعدها تتوالى المحاولات .

صراع المستقبل لن يتركز حول صراع الأيديولوجيات السياسية الذي ساد خلال نصف القرن الأخير بين الماركسية والرأسمالية .

ولكن صراع المستقبل سوف يكون صراع قوميات [2] ، وديانات [3] حيث الاستقطاب سيكون حاداً بين حضارات الغرب البيضاء الحديثة ، وبين

---

[1] عفواً ليست معركة ألوان في جرعة تزييف أخرى .

[2] محشورة حشراً .

[3] صح النوم !

حضارات الشرق وديانته القديمة ، بما فيها حضارات اليابان والصين والهند ، والعرب والأفارقة ، مرة أخرى صراع ديانات وقوميات .) .

ويقول الكاتب السياسى الأستاذ محمد سيد أحمد عما يدور حالياً بيننا وبين الغرب (هل هى صيغة عصرية للحروب الصليبية ؟) معلقاً بذلك ــ فيما ينقله عنه الدكتور محمد عصفور على الأخطار الكامنة فى المخططات الأوربية ، لأنها تطرح صورة للمواجهات عن منطقة البحر المتوسط توحى بأنها بين أوربا المسيحية من جانب والصحوة الإسلامية من جانب آخر ، وأن أوربا المسيحية أصبحت تستخدم الدولة اليهودية درعاً لها فيما سوف يبدو لعرب عديدين صيغة عصرية للحروب الصليبية على مشارف القرن الواحد العشرين ، وأن هناك مشاعر مكبوتة عارمة وإحساساً طاغياً بالإحباط عم أمتنا العربية بأسرها وأن مخططات السلام لابد وأن تبدو فى مثل هذا السياق مؤامرة صليبية صهيونية تستهدف تجريد الأمة العربية من روحها ومن هويتها .

وقد نبه الأستاذ محمد سيد أحمد إلى أن المؤسسات الأوربية ليست فقط بصدد ضم إسرائيل إليها ، بل إنها فى الوقت نفسه تعمل من أجل حث الأقطار العربية على التسليم بدور متميز لإسرائيل فى المنطقة [1] .

فليقولها صريحة : صراع ديانات أو حضارات !! دماء مسفوحة فى قدس الذاتية ؟ صح !!

هكذا قلنا منذ مطلع هذا القرن !

وهكذا ندفع اليوم فاتورة الحساب !

آسف : لم نقلها نحن منذ مطلع هذا القرن ، ولكن قالها قوادهم ومخططوهم ، وسياسيوهم ، ومؤتمراتهم ... !!

---

[1] أنظر جريدة الوفد ١٩٩١/٨/٥ ، والأهالى ١٩٩١/٧/١٣ .

قالها القس زويمر ، والقس جيمس كانتين ، والقس بنغ ، والقس اكسنفلد ، والقس سيمون [1] .

وقالها ويليام جيفورد ويلجراف في المؤتمر التبشيري بلكنو (متى توارى القرآن ومكة عن بلاد العرب ، يمكننا أن نرى العربي يتدرج في سبيل الحضارة (!!!) التي لم يبعدها عنه إلا محمد وكتابه .) .

وقالها اللورد هانوتو (إن الدين الإسلامي يبعث في الإنسان الخمول والكسل ولا يوقظه منهما ، وإن تقدم المسلمين مستحيل ونجاحهم بعيد لأن الإسلام معتقدهم يحول دون ذلك ، وأن كل حكومة انفصلت عن الشرق وسارت على منهاج أوربا علماً ومدنية نجحت .) .

قالوها ثم جاءت سلسلة الأحداث لتصدق ما قالوا :

في تركيا ، ومصر ، وفلسطين ، ولبنان ، وقبرص ، وفي شرق أوربا في بلغاريا ، ويوغوسلافيا ..

وفي الجمهوريات الإسلامية في الاتحاد السوفيتي ، وفي الفلبين ، وكشمير ، وأندونيسيا ، وفي نيجيريا وأريتيريا وتنزانيا وجنوب السودان.. إلخ وفيما يحدث للمتحجبات في فرنسا ، وبريطانيا (!!)

لكن هل وصلنا بهذا إلى القاع الذي لا قاع بعده ، وعندئذ لم يبق إلا الصعود كما يقول أصحاب التغيير المادي الميكانيكي للأحداث ؟ !

كلا ، فهناك في اتجاه القاع ما هو أسفل منه ، إلى باطن الأرض .

إلى عملية الاستئصال .

لا تستغربوا .

واقرءوا مراسيم الملكية جوانا " عودة إلى الأندلس " !! مرة أخرى .

---

[1] أنظر سعيد حارب في كتابه (الخليج العربي أمام التحدي العقدي .) والغارة على العالم الإسلامي ، والصفحات السابقة من هذا الكتاب .

شرقنة الإسلام

رفقاً بعقولنا أيها السادة ؟

كيف تريدون منا أن نرجع هذه العداوات جميعاً إلى سوء العرض منا ؟؟ أوسوء الفهم منهم ؟

أهو الاعلام الغربى ؟

فأنى لدعاة الإسلام أن يخترقوا سور الصين الاعلامى العظيم هذا ؟ بينما أن " الاعلام " فى بلادنا قد تم اختراقه من هناك ؟ إن القوم فى الغرب صنعوا لأنفسهم هذا السور ضد الإسلام بإرادة ووعى !!

فأين مسئولية البشر داخل هذا السور ؟؟

كيف يقال إنهم ضحايا هذا السور ؟؟

ألم يخترق جماهيرهم أسواراً ضربت عليها من قبل ؟

وإلا فقولوا لنا :

لماذا كانت إذن ثورة البروتستانت على وصاية الكاثوليكية ؟

ولماذا كانت إذن الثورة الفرنسية على الكنيسة والإقطاع ؟

ولماذا كانت إذن الثورة الروسية على الاقطاع والرأسمالية ؟

ولماذا كانت إذن المقاومة الدامية فى الحرب العالمية الثانية ضد النازية . ؟

أليس من الظلم الخبيث أن يجرى تبسيط القضية باغفال مرتكبها العاتى هذا ليشار بعد ذلك إلى المتهم بغير دفاع : سوء العرض منا ؟

وإذا كان من الحق أن سور " الصين " الاعلامى الغربى الحديث ـ مع توابعه من أبواق الاعلام الشرقى ....

هو ما يقطع الطريق بين الحضارتين إلى حسن الفهم أو حسن العرض ....

فإن جريمة " المؤسسة الاستشراقية " هى الرافد الأساسى لهذا السور ، وهى العامل الأساسى فى تشويه صورة الإسلام عمداً فى الغرب .

وأسألوا " ادوارد سعيد " عن ذلك ، عما أسماه " شرقنة الشرق " فى معسكر الاستشراق ، هذه الشرقنة التى وضعت الإسلام فى سجن التصور الاستشراقى منذ صلة أوربا بالشرق حتى اليوم .

فأنى لنا أن نخرجه من هذا التصور السجين بينما لا يزال كبار المثقفين منا يُحرّقون البخور تحت أقدام المستشرقين ؟

إنه بالرغم من ادعاء الغرب الموضوعية فى المنهج العلمى فقد أصبح من الواضح ـ طبقاً لدراسة " ادوارد سعيد " أنه فقد هذه المنهجية تماماً فى دراسته للشرق فى جميع أدواره ، إذ أصبح الشرق عنده هو الشرق الذى يصنعه لأغراض فى المعرفة والسلطة ، أو هو الشرق الذى يشرقنه " على حد تعبير إدوارد سعيد " .

وكما يقول نورمان داريل ـ حسب الدراسة التى أشار إليها د.إدوارد سعيد [1] : ـ

لم يكن الغرب ليقبل أن ما يقول المسلمون إنهم يؤمنون به هو فعلاً ما يؤمنون به إلا بدرجة كبيرة من التقاعس .

فقد كان ثمة صورة مسيحية ـ أى عن الإسلام ـ لم يتخل الغرب عن تفاصيلها ـ حتى تحت ضغط الحقائق الواضحة ـ إلا إلى أدنى درجة ممكنة ، أما خطوطها العامة فإنه لم يتخل عنها أبداً .

وكانت جميع التصويبات التى أدخلت ... مجرد دفاع عما كان قد اتضح حديثاً أنه عرضة للنقد ، أى تدعيماً لبنية طرأ عليها الضعف ، فالرؤية المسيحية كان نُصبًا عالياً لم يكن يمكن أن يقوض حتى من أجل إعادة بنائه .)

وقد ازدادت ـ كما يقول د . إدوارد سعيد ـ هذه الصورة المسيحية الصارمة للإسلام حدة وتوتراً بطرق لا تحصى .

كان بينها ـ خلال العصور الوسطى وأوائل عصر النهضة تشكيلة واسعة .. وبحلول هذا الوقت كان الشرق الأدنى قد أدغم تماماً فى التصور

---

[1] الاستشراق : الانشاء . المعرفة . السلطة . للدكتور : إدوارد سعيد

المسيحى اللاتينى للعالم ، على نحو ما حدث فى أغنية رولان ، حيث تصور عبادات العرب على أنها تشمل ماهومت ، وأبولو [1] .

وماهومت فى اللفظ الأوربى هو محمد ﷺ !!

يقول د. إدوارد سعيد : (لم يصبح الإسلام رمزاً للرعب والدمار والشيطان وأفواج من البرابرة الممقوتين بصورة اعتباطية ! فالبنسبة لأوربا كان الإسلام رجة مأساوية دائمة) ، والأهم من ذلك هو ما يذكره إدوارد سعيد من أن أوربا لكى تمتص هذا الخطر الكئيب بالنسبة لأوربا حولته (شيئاً منسوجاً فى لحمة الحياة الأوربية ، وفى انكلترا عصر النهضة وحدها كما يورد صموئيل تشو فى دراسته الكلاسيكية " الهلال والوردة " كان أى رجل متوسط التعليم والذكاء " يجد فى متناوله ويستطيع أن يرى على مسارح لندن عدداً كبيراً نسبياً من الأحداث المفصلة فى تاريخ الإسلام) ، والنقطة الهامة فى ذلك ـ كما يذكر إدوارد سعيد ـ هى أن ما ظل متداولاً حول الإسلام كان صورة معدولة مصغرة عن تلك القوى العظيمة الخطرة التى صار الإسلام رمزاً لها فى أوربا [2] .

ومن تلك الصور المعدلة وبتعبير أدق المشوهة ـــ والتى أثرت على المفكرين المسيحين الذين حاولوا فهم الإسلام : قياسهم شخصية محمد ﷺ على شخصية المسيح (فقد افترض بطريقة خاطئة تماماً أن محمداً كان للإسلام ما كانه المسيح للمسيحية) ومن ذلك : (إطلاق التسمية التماحكية "المحمدية" على الإسلام) .

وأصبح التصور المسيحى للإسلام ليس هو الإسلام نفسه بقدر ما هو تمثيل الإسلام للمسيحى فى القرون الوسطى [3] .

---

[1] المصدر السابق صـ ٩٠

[2] الاستشراق : إدوارد سعيد صـ ٨٩

[3] المصدر السابق صـ ٩٠

يقول د. إدوارد سعيد في عرضه لهذه القضية :

(إن الثقافات كانت دائماً تميل إلى إخضاع الثقافات الأخرى لتحولات كاملة ، متلقية إياها لا كما هى ، بل من أجل مصلحة المتلقى كما ينبغى أن تكون) ثم يؤكد أن المستشرق يفعل ذلك : (من أجل نفسه ، ومن أجل ثقافته، وفى بعض الحالات من أجل ما يظنه مصلحة الشرقى !!) [1] .

وإذ يذهب د. إدوارد سعيد إلى أن الإسلام ـ بفعل الاستشراق ـ قد مثل تمثيلاً سيئاً فى الغرب فإنه يرجع الأمر إلى طبيعة أى تمثيل .

فهو بحكم طبيعته متورط متشابك منسوج مع عدد كبير جداً من الأشياء الأخرى إلى جانب الحقيقة " [2] .

وتمثيل المستشرق هنا هو تمثيل لجوهر (لا يؤمن المستشرق بوجوده ذرة من إيمان ، بل إنه يفعل ما يفعل عادة لخدمة غرض ، وتبعاً لنزعة ما فى وضعية إطارية تاريخية وفكرية ، بل حتى اقتصادية معينة) ثم يقول (والتمثيلات تشكيلات ـ أو كما قال رولان بارت .. التمثيلات إفساد لتشكيلات) . (والمستشرق إلى حد بعيد جداً ، يزود مجتمعه بتمثيلات للشرق: تحمل طابعه المميز الخاص ، وتوضح تصوره لما يمكن للشرق أو ينبغى له أن يكون ، وتتحدى تحدياً واعياً وجهة نظر إنسان آخر إلى الشرق ، وتستجيب لمتطلبات معينة : ثقافية ومهنية ، وقومية ، وسياسية ، واقتصادية تفرضها الحقبة التاريخية [3]) .

وتستمر عملية التزييف للإسلام ـ فى الرؤية الغربية ـ منذ العصور الوسطى إلى اليوم .

---

[1] المصدر السابق صـ ٩٤-٩٦

[2] الاستشراق صـ ٢٧٤

[3] المصدر السابق صـ ٢٧٥

يقول د. إدورد سعيد (هكذا نجد فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر تصديقاً عاماً لكون الجزيرة العربية على حواشى العالم المسيحى ملجأ طبيعياً للهراطقة العصاة .... بينما يأتى مستشرق باحث ومختص المعى زلق فى القرن العشرين ليشير إلى أن الإسلام ليس فى الحقيقة إلا هرطقة آرية من الدرجة الثانية .

وفى كتاب هام " المكتبة الشرقية " لبارتلمى ديربيلو ـ كتب فى آخر القرن السابع عشر[1] وظل المرجع الرئيسى السائد فى أوربا حتى أوائل القرن التاسع عشر ، نجده يقول عن أشرف خلق الله : (هذا هو المنتحل المشهور ماهومت ، المؤلف والمؤسس لهرطقة اتخذت لها اسم الدين نسميها نحن "الماهومتية " ... وقد نسب مفسرو القرآن ، وفقهاء الشريعة الإسلامية أو الماهومتية إلى هذا النبى المزيف كل المدائح التى نسبها الآريون والبولسيون والهراطقة الآخرون إلى يسوع المسيح مجردين إياه فى الوقت نفسه من ألوهيته ...) [2] .

وهل يعرف القارئ ماذا فعل " دانتى " فى جحيمه الذى احتفل به نُخبة المثقفين فى البلاد الإسلامية فى العصر الحديث ، ورأوا فيه هرماً عالياً من أهرامات الثقافة الأوربية ، وقمة من قمم الأدب الأوربى ، وأخذوا يقارنون بينه وبين رسالة الغفران ، ويعقدون الصلة بينهما دون أن يشيروا ولو من طرف خفى إلى تشويهه للإسلام ؟

إنه وضع موميتو فى الدائرة الأعمق من الجحيم .. فقبل أن يبلغ دانتى إلى موميتو فى رحلته فى الجحيم يمر عبر دوائر تحتوى على أناس آثامهم من مرتبة أدنى " حتى إذا وصل إلى موميتو فإنه لا يبقى بعده فى

---

[1] المصدر السابق صـ ٩٣ .

[2] المصدر السابق صـ ٩٤ .

الدائرة الأعمق غير يهوذا وبروتس ، ثم يصل إلى قعر الجحيم ، حيث يوجد الشيطان ذاته [1] .

ولا نحدثك عن العقاب الذى فصله تفصيلاً فى هذه الدائرة فهو مما لا يطاق ذكره فى هذه الإشارات [2] .

وبالرغم من أن سيمون أوكلى فى كتابه " تاريخ العرب " الصادر عام١٧٠٨ قد أوضح دائماً (أن الإسلام كان هرطقة مستنكرة) فإن كشفه لحقيقة أن الأوربيين يدينون للمسلمين بأول ما عرفوه عن الفلسفة كان صدمة مؤلمة للجمهور الأوربى ، أدت إلى طرده من كمبردج عام ١٧٠٩ .

والحقد الأكبر لأوربا ضد الإسلام فيما يقوله هنرى بيرس .. يبدأ من ظهور الإسلام إلى اليوم إذ كانت نتيجة الغزو الإسلامى الذى بدأ فى القرن السابع إزاحة مركز الثقافة الأوربية بعيداً عن البحر الأبيض المتوسط الذى كان آنئذ منطقة غربية وباتجاه الشمال [3] .

وقد كان الشرق الإسلامى بخاصة هو الذى تحدى حركة الاستعمار الأوربى فى العصر الحديث .

فـ (بالنسبة لأوربا كان الشرق ــ باستثناء الإسلام ــ حتى القرن التاسع عشر ميداناً ذا تاريخ مستمر من السيطرة الغربية التى لم تتحد .. إلا أن الشرق العربى والإسلامى بشكل عام كانا الوحيدين اللذين واجها أوربا بتحد لم تجد له حلاً على الأصعدة السياسية والفكرية ، ولزمن قصير : الاقتصادية أيضاً ...

لقد كان الإسلام دون شك استفزازاً حقيقياً بطرق عديدة . فقد كان قريباً من المسيحية قرباً مقلقاً جغرافياً وثقافياً .. وكان بمقدوره أن يفاخر بنجاحات لاتنافس عسكرياً وسياسياً ، بل إن ذلك لم يكن كل شئ ، فالأصقاع

---

[1] المصدر السابق صـ ٩٦ .

[2] المصدر السابق صـ ١٠٣ .

[3] المصدر السابق صـ ٩٨ .

الإسلامية مجاورة للأصقاع التوراتية ، بل حتى فوقها ، وأكثر من ذلك فإن قلب المجال الإسلامي كان دائماً ولا يزال الاقليم الأكثر قرباً إلى أوربا ..

ومنذ نهاية القرن السابع حتى معركة ليبانتو عام ١٥٧١ كان الإسلام في شكله العربي والعثماني أو شمال الافريقي والأسباني قد طغى على المسيحية الأوربية أو هددها تهديداً فعالاً ، ولم يكن ممكناً أن يغيب عن ذهن أي أوربي ـ ماضياً أو حاضراً ـ كون الإسلام قد فاق روما اشعاعاً وسما عليها .

ولم يكن غيبون نفسه استثناء من هذه القاعدة ـ في كتابه الشهير انحدار الامبراطورية الرومانية وسقوطها ـ إذ يقول عن الفتح العربي الإسلامي : (غزا هؤلاء الخلفاءُ الإسلاميون ـ ... خلفاءَ أغسطس وارتاكسيركس ، وأصبح الملوك المتنافسون في الوقت نفسه فريسة لعدو كانوا لزمن طويل جداً قد اعتادوا أن يحتقروه ، وخلال عشر سنوات من حكم عُمر أخضع العرب لطاعته ٣٦ ألف مدينة وقلعة ، ودمروا أربعة آلاف كنيسة ومعبداً للكافرين وشيدوا ١٤٠٠ جامع لممارسة ديانة محمد (!!) وعبر مائة سنة من هربه من مكة (هكذا ...) امتد نفوذ خلفاء محمد (!!) وسلطانهم من الهند إلى المحيط الأطلسي عبر الأقاليم المختلفة والنائية ..) [١]

وفي العصر الحديث نجد نابليون يعتمد في حملته على مصر على دراسات كونت دوفولني ـ وهو رحالة فرنسي نشر كتابه " رحلة إلى مصر وسورية " في مجلدين عام ١٧٨٧ م ، وكان فولني يرى : أن ثمة ثلاثة حواجز في وجه السيطرة الفرنسية في الشرق ، وأن أية قوة فرنسية لابد أن تحارب لذلك ثلاثة حروب : الأولى ضد انكلترا ، والثانية ضد الباب العالي العثماني ، والثالثة : وهي أكثرها صعوبة : ضد المسلمين [٢] .

---

[١] نقلاً عن غيبون : الاستشراق لادوارد سعيد صـ ١٠١ ـ ١٠٢ .

[٢] الاستشراق صـ ١٠٧ ، صـ ١١١ .

ولقد آمن فيكتور هوجو بمجد نابليون التكتيكى فى حملته الشرقية ، وجسده فى قصيدة رآه فيها :

ابن المعجزة أذهل أرض المعجزات .

وملأ الناس خوفاً بجيوشه التى لم يكن لها سابق .

ونبيلاً جليلاً ظهر للقبائل المذهولة .

مثل ماهومت غربى [1] .

ويرى د. إدوارد سعيد فى كتاب " وصف مصر " الذى كان الثمرة العلمية ـ التى يفخر بها المصريون اليوم ـ والذى طبع فى ثلاثة وعشرين مجلداً ضخماً بين ١٨٠٩ و ١٨٢٨ م ، يرى فيه (المصادرة التملكية العظيمة لبلد من بلد آخر) ، حيث انطلق الباحثون من تصور عبر عنه فورييه فى مقدمته للكتاب من أن مصر بلد (غارق الآن فى البربرية) تغزوه (حضارة بلغت حد الكمال) ، الأمر الذى دفع الكاتبين إلى أن يكتبوا من منظور سابق: فأخذوا (يشكلون من كل جزئية تُلاحظ تعميماً ، ومن كل تعميم قانوناً لا يتغير للطبعة الشرقية) ، وبهذا (يزيح الوصفُ التاريخَ المصرى أو الشرقى عن موضعه من حيث هو تاريخ له تماسكه الداخلى والخاص ، وهويته ومعناه) وصار " وصف مصر " كما يقول إدوارد سعيد (النمط الأعلى لجميع الجهود التالية التى بذلت لتقريب الشرق من أوربا ومن ثم لامتصاصه نهائياً) [2] .

ويأتى الاستعمار الغربى بعد ذلك .

ليتعامل مع البلاد الإسلامية من منظور استعلائى يقول د. إدوارد سعيد (لاينكر بلفور [3] فى أى سياق فوقية بريطانياً ودونية مصر) وهو يقول فى

---

[1] المصدر السابق صـ ١٠٩ .

[2] المصدر السابق صـ ١١٠ ، صـ ١١١ .

[3] هو آرثر جيمس بلفور هو شخصية سياسية بريطانية مرموقة فى أوائل القرن العشرين خدم بلده فى المناصب العليا ، وكان وزيراً للخارجية ورئيساً للوزراء ونائباً بالبرلمان البريطانى لمدة طويلة .

خطبة له بمجلس العموم مبرراً احتلال مصر (إن الأمم الغربية فور انبثاقها فى التاريخ تظهر تباشير القدرة على حكم الذات لأنها تمتلك مزايا خاصة بها، ويمكنك أن تنظر إلى تاريخ الشرقيين بأكمله دون أن تجد أثراً لحكم الذات على الاطلاق ، كل القرون العظيمة التى مرت على الشرقيين ، ولقد كانت عظيمة جداً (!!) انقضت فى ظل الطغيان .) وماذا يعنى هذا فى منطق بلفور ؟ إنه يعنى أنه (خير لهذه الأمم العظيمة (!!) أن نقوم نحن بممارسة هذا النمط من الحكم المطلق عليها .) [1] .

ويقرر اللورد كرومر رؤية الغرب للشرق فى (أن الدقة كريهة بالنسبة للعقل الشرقى) بينما الأوربى (ذو محاكمة عقلية دقيقة ، وتقريره للحقائق خال من أى التباس ، وهو منطقى مطبوع) [2] ، ويستمر قائلاً : (يظهر الشرقيون سذجاً غافلين ، محرومين من الحيوية والقدرة على المبادرة مجبولين على الإطراء البائخ والدسيسة والدهاء والقسوة على الحيوانات ، والشرقيون عريقون فى الكذب ، وهم كسالى وسيئو الظن ، وهم فى كل شئ على طرف نقيض من العرق الانجلو سكسونى فى وضوحه ومباشرته ونبله.) [3] .

والغرب عندما يتعامل مع الشرق من هذا المنظور الاستعلائى فى بداية القرن فقد كان ذلك (لأن تراثاً من الاستشراق أقدم من تراث القرن التاسع عشر زودهم بمفردات وصور وبلاغة ومجازات ليقولوه بها) [4] .

* * *

لقد كان لابد ــ تحت رعاية الأدب ــ أن يتجذر العداء فى قلب الأوربى المثقف ــ الذى يقرأ ــ على سبيل المثال من عيون الأدب الإنجليزى

---

[1] الاستشراق د. إدوارد سعيد ــ ترجمة كمال أبوديب طبعة ١٩٨١ صـ ٦٤ ــ ٦٥

[2] المصدر السابق صـ ٦٩ .

[3] المصدر السابق صـ ٧٠ .

[4] الاستشراق : إدوارد سعيد صـ ٧٢ .

فى القرن التاسع عشر فى رواية والترسكوت (الطلسمان) ماجاء على لسان المسيحى ـ فى أيام صلاح الدين ـ وهو يكتشف عدوه المسلم ، ما يأتى : ـ

(لقد اعتقدت أن عرقك الأعمى قد انحدر من سلالة الشرير الرجيم الذى ما كنتم لتستطيعوا دون عونه أن تحتفظوا بأرض فلسطين هذه فى وجه هذا العدد من جنود الله الشجعان (يقصد الصليبيين !!) وأنا لا أتحدث بهذه الطريقة عنك أنت بالذات ـ أيها المسلم ـ بل بشكل عام (!!) عن قومك ودينك ، ومع ذلك فالغريب فى نظرى ليس أنك تنحدر من سلالة هذا الشرير ، بل إنك ـ أيضاً ـ تفاخر بذلك) .

وفى هذا النص ـ فضلاً عن أثره فى وجدان الأوربى ـ يظهر التعالى المتمثل فى لعنة شعب بأكمله " بشكل عام " مع شئ من الأدب النفاقى الذى يجيده هؤلاء فى عبارة " أنا لا أقصدك أنت بالذات " .

وكما يقول د. إدوارد سعيد : (إن الأمر ليبدو كما لو أن ثمة برميلاً اسمه " الشرقى " تطرح فيه دون تفكير جميع آراء الغرب السلطوية ، اللامنسوبة ، التقليدية حول الشرق .) [1] .

وماذا يمكن أن يترسخ فى وجدان الأوربى ـ المثقف بخاصة ـ وهو يقرأ لعلم من أعلام الأدب الفرنسى فلوبير فى قصته " معجبة الشرق " : (منذ زمن اعتاد صوفى أن يسير فى شوارع القاهرة عارياً تماماً فيما عدا طاقية على رأسه وأخرى على عضوه ، ومن أجل أن يبول كان يرفع طاقية العضو ، فتركض النساء العاقرات اللواتى أردن الإنجاب إليه ، ويضعن أنفسهن تحت قوس بوله ، ويبللن أنفسهن به .)

وهكذا كما يقول د. إدوارد سعيد يصبح الشرق معرضاً حياً للشذوذ ، ويظهر هذا المنحى ـ حتى فى أعمال المستشرقين الجادين ، فقد قال كارل بكر : (إنه رغم أن الإسلام ـ لاحظ الصفة التعميمية الهائلة على حد تعبير

---

[1] الاستشراق لإدوارد سعيد صـ ١٢٥ .

إدوارد سعيد ـ ورث التراث الهيلينى فإنه لم يكن قادراً على أن يفهم أو يستخدم التراث اليونانى الإنسانى !!

وعلاوة على ذلك فمن أجل أن يفهم المرء الإسلام عليه قبل كل شئ أن يعاينه لا بوصفه " ديناً " أصيلاً " بل بوصفه شيئاً من محاولة شرقية فاشلة لاستخدام الفلسفة اليونانية فى غيبة للإلهام الخلاق الذى نجده ـ كما يقول بكر ـ فى أوربا عصر النهضة .) هكذا !

كما يظهر فى رؤية لويس ماسينيون ـ الذى قد يكون أعظم المستشرقين الفرنسيين شهرة وتأثيراً ـ الذى كان يرى أن أعظم رجال الإسلام ـ لم يكن محمداً (!!) أو ابن رشد ، بل الحلاج القديس المسلم الذى صلبه المسلمون السنيون لجرأته على شخصنة الإسلام [1] .

وهو يقصد بهذه الشخصنة ذلك النوع من التجسد المسيحى للإله ، الذى يلاحظ ماسينونا أن الإسلام يرفضه (رفضاً منظماً ...) كما يقول .

وفى عرف الاستشراق ـ كما يقول إدوارد سعيد ـ (كان للإسلام معنى يمكن أن يوجد ـ فى صياغة هى الأكثر دقة وجلاء ـ فى رسالة رينان الأولى ، فمن أجل أن يفهم الإسلام فهما أفضل ينبغى أن يقلص إلى " الخيمة والقبيلة " [2] .) .

وتستمر هذه النظرة الاستعلائية العدائية عند المستشرقين المحدثين ـ فى منتصف القرن العشرين ـ تظهر فيما ذكره إتش . أى . آر . جب فى سلسلة محاضراته فى جامعة شيكاغو عام ١٩٤٥ ، إذ يقول : صحيح أنه وجد بين الشعوب الإسلامية فلاسفة عظماء وأن بعضهم كانوا عرباً ، غير أنهم كانوا استثناءات نادرة ، فالعقل العربى سواء فى علاقته بالعالم الخارجى أو فى علاقته بالعمليات الفكرية يعجز عن أن يتخلص من شعوره الجارف الحاد بانفصالية الأحداث المحسوسة وفرديتها ، وهذا بالذات ـ فيما اعتقد ـ

---

[1] المصدر السابق صـ ١٢٧ .

[2] الاستشراق صـ ١٢٨ .

أحد العوامل الرئيسية التى تكمن وراء ظاهرة " فقدان الحس بالقانون " التى اعتبرها الأستاذ ماكدونالد فرقاً مميزاً فى الشرقى . وهذا هو أيضاً ما يوضح مايجد الطالب الغربى صعوبة كبيرة فى فهمه ـ نفور المسلمين من العمليات الفكرية العقلانية .) .

وعن أثر جب فى المناخ الثقافى الأوربى من جهة فهمه للإسلام يقول إدوارد سعيد : إن تحيز جب بالرغم من معرفته الفائقة التى تظهر فى كتابه ، أوبسببها على الأرجح (يظل عقبة كأداء فى وجه كل من يحاول أن يفهم الإسلام الحديث) [1] .

وبالنسبة لموقف الغرب من الشرق عموماً شاملاً ـ الإسلام بوجه خاص ـ لا يسعنا أن نتجاهل موقف كارل ماركس من الاستعمار الإنجليزى للهند فى القرن التاسع عشر . فالبرغم من أنه كان ينعته بأنه (مدفوع بأكثر المصالح قذارة ..) إلا أنه كان يرى فيه رسالة إحيائية تجديدية ، يقول : (إن على انكلترا أن تحقق فى الهند رسالة مزدوجة : الأولى تدميرية ، والثانية احيائية تجديدية ، افناء المجتمع الأسيوى ، وإرساء الأسس المادية للمجتمع الغربى فى آسيا .) .

ويرى فى هذا العمل بالرغم مما فيه من تعذيب ، واقتراس لأرواح لا تحصى ـ يمكن أن يقاس على حكم تيمورلنك ـ فإنه (يهبنا متعة أعظم) على حد قول " جوته " وهو يستشهد به [2] .

وماذا عن توماس كارليل الذى يُستشهد به فى مجال الانصاف للإسلام بناء على ماكتبه فى (الأبطال) عن محمد ﷺ ؟

بالرغم من أن كارليل لا يتهم محمداً بالكذب ـ شأن كثير غيره من المستشرقين ـ إلا أنه كان يرى أن محمداً هو مؤلف القرآن ، وأن القرآن ـ وناقل الكفر ليس بكافر ـ (هو خليط مهلهل مشوّش ممل خام مستغلق ،

---

[1] الاستشراق لإدوارد سعيد صـ ١٢٩

[2] الاستشراق صـ ١٧١ .

تكرار لا نهاية له ، وإسهاب وإطناب ، ومعاظلة ، خام إلى أقصى الدرجات ، مستغلق وبإيجاز : غباء فارغ لا يطاق) [1] .

وفى كتاب : رحلة من باريس إلى القدس (١٨١٠ ــ ١٨١١) يتحدث شاتو بريان عن القرآن بأنه لم يحتو على أى " مبدأ للحضارة ، أو أى تعليم يسمو بالشخصية " ثم يتمادى المستشرق ليمجد الحرب الصليبية باعتبار أنها (لم تدُر حول إنقاذ كنيسة القيامة فحسب ، بل دارت حول معرفة من سينتصر : مذهب تعبدى هو عدو للحضارة محبذ ــ باطراد ــ للجهل ، وللطغيان ، وللعبودية ــ أى الإسلام ــ أو مذهب تعبدى يوقظ فى البشر المعاصرين عبقرية الزمن الغابر الحكيم ، ويلغى العبودية الدنيئة .) هكذا !!

وكان هذا كما يقول إدوارد سعيد : أول ذكر مهم لفكرة قدر لها أن تكتسب سلطة خرقاء : أوربا التى تلقن الشرق معنى الحرية ، وهى ــ أى الحرية ــ مفهوم آمن شاتو بريان ، وكل من جاء بعده بأن الشرقيين ــ وخصوصاً المسلمين ــ لا يعرفون شيئاً عنه ، يقول : " عن الحرية لا يعرفون شيئاً ، من الاحتشام ليس لديهم شئ (!!)

" القوة هى ربهم " [2] .

لقد هاجم مؤرخون ثقافيون محترمون (!!) مثل ليوبولدفون رانكه وجاكوب بيركهاردت الإسلام بعنف ، ففى كتابه تاريخ العالم (١٨٨١ ـ ١٨٨٨) تحدث ـ طبقاً لدراسة إدوارد سعيد ـ رانكه عن الإسلام ليصف هزيمته أمام الشعوب الجرمانية الرومانية " وفى " شذرات تاريخية " ١٨٩٣م تحدث بيركهارد عن الإسلام كشئ " بائس ، عار ، تافه ، وقد قام بمثل هذه العمليات بمهارة وحماسة أبلغ بكثير أو ستفالد اسبنغلر فى كتابه " تدهور الغرب ١٩١٨ ـ ١٩٢٢ [3] !

---

[1] أنظر الاستشراق لإدوراد سعيد صـ ١٦٩ ، ونحن لسنا بحاجة إلى الوقوف بجدية أمام هذا النقد الأبله ، الموجه إلى لغة القرآن من جاهل بلغة القرآن العربية ولو كان مستشرقاً !

[2] الاستشراق صـ ١٨٦ ـ ١٨٧ .

[3] الاستشراق صـ ٢١٩ .

وهكذا كان نولدكة وهو يعلن عام ١٨٨٧ : أن خلاصة عمله كمستشرق كانت تأكيد رأيه فى " المنزلة الوضيعة " للشعوب الشرقية .

ويقدم جاك فاردنبرج فى دراسته (الإسلام فى مرآة الغرب) دراسة لخمسة خبراء مهمين كصانعين لصورة معينة للإسلام ، وفى عمل كل منهم تظهر (درجة عالية من التحيز ، بل حتى من العدائية لدى أربعة منهم ، كما لو أن كل كاتب منهم رأى الإسلام انعكاساً لضعفه الخاص .)

وفى مجموعهم يمثل هؤلاء المستشرقون الخمسة [١] : الأفضل والأقوى فى تراث الاستشراق خلال الفترة الواقعة بين عام ١٨٨٠م ، وسنوات ما بين الحربين العالميتين ، وهم بالرغم من الفروق الظاهرة فى دراستهم فقد كانت تلك الفروق أقل أهمية من إجماعهم الاستشراقى على طبيعة الإسلام : دونية كامنة [٢] ، وقد صاغ هؤلاء الخمسة (رؤيا للإسلام كان لها تأثير واسع على الدوائر الحكومية عبر العالم الغربى بأكمله) حيث كانت لهم وظائفهم فى الإدارات الاستعمارية فى الغرب [٣] .

ويبلور ماكدونالد ميزة الشرقى (المسلم) فى (فقدان الحس بالقانون، فبالنسبة إليه ليس ثمة نظام مُرتّب للطبيعة راسخ لا يتزحزح) (وإذا بدت هذه النظرة ـ كما يقول د. إدوارد سعيد عاجزة عن أن تفسر الإنجازات الفائقة التى حققتها العلوم الإسلامية التى بنى عليها قدر عظيم من العلوم الحديثة فإن ماكدونالد يظل صامتاً ويستمر فى دعواه) [٤] .

ثم يقول إدوارد سعيد : لا شئ من هذا طبعاً جديد .. فمن شليغل إلى رينان ، ومن روبرتسن سميث إلى ت . أ . لورنس تكرر هذه الأفكار ، ويعاد

---

[١] هؤلاء جولدزيهر ، ودنكن بلاك ماكدونالد ، وكارل بكر ومى سنوك هيرغرونج ، وماسينون .

[٢] المصدر السابق صـ ٢٢٠ .

[٣] المصدر السابق صـ ٢٢١ .

[٤] الاستشراق صـ ٢٧٨ .

تكرارها ، فهى تمثل قراراً يتعلق بالشرق لاحقيقة من حقائق الطبيعة بأى شكل ، وكل إنسان مثل ماكدونالد وجب دخل واعياً مهنة اسمها الاستشراق فعل ذلك بناء على قرار متخذ : إن الشرق هو الشرق .) [1] وكفى !

وكيف ينظر مستشرق شهير معاصر ــ فون جرونباوم ــ إلى الإسلام؟ إنه كما يقول د. إدوارد سعيد : (لا يجد فون غرونباوم من صعوبة فى الافتراض بداهة أن الإسلام ظاهرة أحادية وحدانية ، بخلاف أى ديانة أو حضارة أخرى ، ثم يمضى بعد ذلك ليظهر الإسلام ضد ــ إنسانى ، عاجزاً عن التطور ، ومعرفة الذات ، والموضوعية ، إضافة إلى كونه عقيماً غير خلاق ، لا عليماً ، وسلطوياً) .

وقد سقط فون غرونباوم فريسة لشيئين فى آن واحد : المذهبيات الاستشراقية الذى ورثها ، والملمح الخاص للإسلام الذى اختار أن يؤوله باعتباره قصوراً : وهو أن فى الإسلام نظرية دينية مفصّحاً عنها بصورة دقيقة ، وعدداً ضئيلاً جداً ، مع ذلك ، من المسارد للتجربة الدينية ؛ ونظرية سياسية مُفصّحاً عنها بصورة دقيقة ، وعدداً ضئيلاً من الوثائق السياسية ؛ ونظرية فى البنية الاجتماعية ، وعدداً ضئيلاً جداً من الأفعال المفردنة ، ونظرية فى التاريخ ، وعدداً ضئيلاً جداً من الأحداث المؤرخة ؛ ونظرية مفصحاً عنها فى الاقتصاد وعدداً ضئيلاً جداً من السلاسل المقاسة كمياً ، وهكذا .. والحصيلة النهائية هى رؤيا تاريخية للإسلام مصاباً بالعرج كلياً بنظرية لثقافة عاجزة عن أن توفى واقعه الوجودى حقه ، أو حتى أن تكتنهه فى تجربة معتنقيه ، وإسلام فون غرونباوم ، بعد كل حساب ، هو إسلام المستشرقين الأوروبيين المبكرين ــ موحد متناغم ، مزدرٍ للتجربة الإنسانية العادية ، إجمالى ، تقليصى ، لا متغير [2] .

---

[1] الاستشراق صـ ٢٧٩ .

[2] الاستشراق صـ ٢٩٧ ـ ٢٩٨ .

إن وجهة نظر كهذه فى الإسلام هى ، فى أعماقها ، وجهة نظر سياسية ، وليست ، حتى بطريقة استبدالية لبقة ، نزيهة متجردة .

وفى الوقت الذى ينظر فيه الكونت دوكريساتى إلى سوريا باعتبارها (شرق فرنسا الخاص) وفقاً لما أعلنه فى محاضرة ألقاها على ما يسمى " التحالف الفرنسى " عام ١٩١٣ " فإنه كان يطرح ـ أيضاً ـ منظومته فى أنه (إذا كان لفرنسا أن تستمر فى منع " عودة الإسلام " فقد كان من الخير لها أن تحتل الشرق) ، وقد كررت هذه الآراء فى مناسبات كثيرة [١] .

وفى مكان آخر فى جامعة شيكاغو عام ١٩٢٤ نجد فالنتاين شيرول ، وهو رجل صحافة معروف وتجربة عظيمة فى الشرق ، يقرر فى منظومته الفكرية بكراهية ظاهرة : أن " المحمدية " هى أحد القوى العالمية العظيمة المسئولة عن أعمق خطوط الانقسام فى العالم [٢] ويعلق د. إدوارد سعيد على هذا التناول الاستشراقى للشرق والإسلام بأنه مناقض لما يزعمه لنفسه من ثقافة تحررية ، وهو على العكس من ذلك يمثل : تصلب المذهب والمعنى الذى حوله التظاهر بالعلم إلى حقيقة ؟؟ !

ويعنى هذا المنظور الفكرى الذى تبنته المؤسسة الاستشراقية عن الإسلام ، يعنى على صعيد عملى ـ على حد قول إدوارد سعيد (أنه حين يجاهد الشرقيون ضد الاحتلال الاستعمارى فإن عليك أن تقول : إن الشرقيين لم يفهموا أبداً معنى حكم الذات بالطريقة التى نفهمه بها نحن (نحن أى الأوربيين) أو تقول مع برنارد لويس : إنه إذا قاوم العرب الفلسطينيون الاستيطان الإسرائيلى .. فإن ذلك لا يمثل إلا " عودة الإسلام " ، أو كما حددها مستشرق معاصر ذائع الصيت مقاومة إسلامية لشعوب لا إسلامية ، وهو مبدأ إسلامى أسس فى القرن السابع ...) هكذا .

---

[١] الاستشراق صـ ٢٣٣ .

[٢] المصدر السابق صـ ٢٥٨ .

وهكذا (إذ يجتاح الشعور ضد الاستعمار العالم الشرقى بأكمله ... فإن المستشرق يلعن ذلك كله لا بوصفه إزعاجاً فارغاً فقط ، بل بوصفه إهانة للديموقراطيات الغربية ، وبينما تواجه العالم قضايا حاسمة ذات أهمية عامة بالغة فإن الصورة الكاريكاتورية للشرق تستغل من قبل سياسيين يستقون زادهم العقائدى (الأيدلوبوجى) لا من الاخصائيين " التكنوقراطيين " نصف المتعلمين فحسب ، بل من المستشرق الفائق العلم كذلك (!!) ويحذر خبراء العالم الخرافيون فى وزارة الخارجية الأمريكية من مخططات العرب للاستيلاء على العالم ، ويوصف الصينيون الغادرون (!!) والهنود نصف العراه (!!) والمسلحون السليبون بأنهم حدءات ستنهش عطايانا) [1] .

ولم تكن آراء المستشرقين هذه مجرد سطور فى بطون الكتب ولكنها ذات أثر ملموس فى وجدان الرجل العادى فى الغرب .

يقول د. إدوارد سعيد (تطغى هذه الآراء المعاصرة للمستشرقين على الصحافة والعقل الشعبى ، فالعرب ــ مثلاً ــ يتصورون راكبى جمال ، ارهابيين ، معقوفى الأنوف ، شهوانيين شرهين ، تمثل ثروتهم غير المستحقة إهانة للحضارة الحقيقية ، وثمة دائماً افتراض متربص بأن المستهلك الغربى رغم كونه ينتمى إلى أقلية عددية ذو حق شرعى إما فى امتلاك معظم الموارد الطبيعية فى العالم ، أو فى استهلاكها أو فى كليهما ، لماذا ؟ لأنه بخلاف الشرقى إنسان حق ... إن غربياً أبيض ينتمى إلى الطبقة الوسطى يؤمن بأنه امتياز طبيعى له لا أن يدير شئون العالم غير الأبيض وحسب ، بل أن يمتلكه كذلك لمجرد أن العالم الأخير تحديداً ليس بالضبط إنسانياً تماماً بقدر ما "نحن" كذلك) [2] !!

وهكذا يستقطب القطيع المؤمن فى أعماقه بما يقوله أ رنست رينان (إنه لمن الأفضل أن يكون المرء مخطئاً مع أمته المخطئة كلها من أن يكون على درجة عالية من الصواب مع أولئك الذين يكشفون لها الحقائق القاسية. [3] !!

---

[1] الاستشراق صـ ١٣٠ ـ صـ ١٣١ .

[2] الاستشراق لإدوارد سعيد صـ ١٣١ .

[3] المصدر السابق صـ ١٦٦ .

بين سوء القصد وسوء العرض :

يقول د. إدوارد سعيد :

(إن كل أوربي كان ــ فيما يمكن أن يقوله عن الشرق عنصرياً عرقياً امبريالياً ، وإلى درجة كلية تقريباً : عرقي التمركز ...

إن المجتمعات البشرية ــ أو على الأقل الثقافات الأكثر تقدماً ، نادراً ما منحت الفرد شيئاً عدا الامبريالية والعنصرية ، والتمركز العرقي للتعامل مع الثقافات الأخرى ...

إن الاستشراق كان جوهرياً مذهباً سياسياً مورس إرادياً على الشرق ، لأن الشرق كان أضعف من الغرب) [1] .

إن كمية هائلة من الكتب دونها الغرب عن الشرق (حوالي ستين ألف كتاب تتعلق بالشرق الأدنى قد كتبها الغربيون بين عام ١٨٠٠ ــ ١٩٥٠) أفلم يكن منهم رجل رشيد ؟ اللهم إلا أن نقر مع إدوارد سعيد أن (الاستشراق من حيث هو جهاز ثقافي هو عدوانية ونشاط ومحاكمة ...)

وهل تغيرت هذه العدوانية على مر العصور ؟

يسجل إدوارد سعيد تطور حركة الاستشراق فيما بين القرن التاسع عشر والعشرين فيحصره فيما يسميه الاستشراق الظاهر ، أما ما وراءه مما يسميه (الاستشراق الكامن .) فهو اجماعي مستقر لا يكاد يتغير ، وهو نادراً ما يشكل فرقاً في المضمون فقد ارتبطت الأطروحات حول التخلف والانحطاط الشرقيين (!!) بالأفكار السائدة ــ في القرن التاسع عشر ــ حول الأسس الحيوية (علم الحياة) للتفاوت العرقي [2] . وما دام الشرق ينتمي إلى عرق منحط محكوم فقد كان ينبغي له أن يحكم من قبل الاستعمار الغربي

---

[1] الاستشراق صـ ٢١٥ ، صـ ٢١٦

[2] الاستشراق صـ ٢١٧ .

ويتوفر المثل التقليدى لهذه النظرة فى كتاب جوستاف لوبون الصادر عام ١٨٩٤ (القوانين النفسية لتطور الشعوب .) [١] .

ولم تكن النظرة العرقية وما تستتبعه من دونية الشرق واحتقاره مذهباً فكرياً معزولاً فى ذهن زعمائه ، ولكنها كانت فى ثقافة أواخر القرن التاسع عشر فى أوربا (تكاد تكون غير متنازع عليها) [٢] .

وكانت قد تغلغلت إلى أعماق الأشياء ، وأكدت أنه ليس ثمة مهرب من الأصول ، ومن الأنماط التى أفرزتها هذه الأصول ، وقد أثر أصحاب هذه النظرة تأثيراً كبيراً على المستوى العام وأوصوا بسياسات عامة فى ضوء تقريراتهم [٣] ، وعلى سبيل المثال ، وانطلاقاً من هذه النظرة نجد كاتباً وسياسياً شهيراً قضى جانباً كبيراً من حياته بين العرب صديقاً حميماً لهم ــ لورنس ، نجده يقول فى موضع من كتابه " أعمدة الحكمة السبعة " (.. لم تكن جميع الأقاليم الخاضعة للإمبراطورية البريطانية لتساوى لدى صبيا انكليزياً واحداً ميتا .) [٤] . ونجد آخر مثل جوج أورول يقول عن زيارته لمراكش عام ١٩٣٩ (من الصعب دائماً أن تصدق أنك تسير بين كائنات بشرية .... إن للبشر وجوهاً سمراء ، ولديهم عدد كبير منها ، هل هم حقاً اللحم نفسه الذى هو أنت ؟ هل لهم حتى أسماء ؟ أم أنهم مجرد مادة سمراء لا متمايزة ، أفراد بقدر ما للنحل أو حشرات المرجان أفراد ؟! إنهم ينبعون من الأرض ، يعرقون ويعانون الجوع لبضع سنوات ، ثم يغوصون عائدين إلى أكوام المقابر التى لا أسماء لها دون أن يلحظ أحد أنهم ذهبوا ، حتى القبور نفسها سرعان ما تتحل رجوعاً إلى التراب) [٥] .

---

[١] المصدر السابق صـ ٢١٨ .

[٢] الاستشراق صـ ٢٤٠ ، ٢٤١ .

[٣] المصدر السابق صـ ٢٤٥ .

[٤] المصدر السابق صـ ٢٤٨ .

[٥] المصدر السابق صـ ٢٥٧ .

ثمرات شرقنة الإسلام فى العصر الحاضر :

وكان من ثمرات هذه الشرقنة فى العصر الحاضر كما يدلنا على ذلك د. إدوارد سعيد :

أن العربى ظهر بعد حرب ١٩٧٣ فى كل مكان شيئاً أبعد تهديداً وأشد خطراً ، وبرزت بانتظام رسوم ورقية تصور شيخاً عربياً يقف وراء مضخة للبنزين ، لكن هؤلاء العرب كانوا بجلاء " ساميين " : وكانت أنوفهم المعقوفة بحدة ، والنظرات الشذراء الخبيثة المشربة على وجوههم تذكيراً واضحاً (لجمهور غير سامى فى معظمه) بأن " الساميين " كانوا يقبعون تحت كل مشكلات الغرب ومصاعبهم التى كانت فى هذه الحالة بشكل رئيسى النقص فى البنزين .

وهكذا ، فإذا كان العربى يحتل مكاناً يكفى لجذب الانتباه ، فإنه يحتله كقيمة سلبية ، فهو يعاين كمخرب لوجود إسرائيل والغرب ، أو فى نظرة أخرى للشئ ذاته ، كعقبة أمكن تجاوزها لخلق إسرائيل عام ١٩٤٨ . وإذا كان هذا العربى ذا تاريخ على الاطلاق ، فإن تاريخه جزء من التاريخ الممنوح له (أو المستلب منه ، فالفرق ضئيل) من قبل التراث الاستشراقى ، وفى مرحلة تالية ، التراث الصهيونى . لقد عوينت فلسطين ــ من قبل لامارتين والصهاينة الأوائل على حد سواء ــ صحراء خالية تنتظر التفجر بالازدهار ، وكان يفترض أن القلة من السكان الذين كانوا فيها رُحلٌ لا وزن لهم ولا حق فعلياً فى الأرض ، وأنهم ، لذلك ، دون واقع ثقافى أو قومى ....

وإلى جانب عدائه للصهيونية ، فإن العربى مزود بالنفط . وتلك خصيصة سلبية أخرى ، إذ أن غالبية المسارد المقدمة عن النفط العربى تساوى بين المقاطعة النفطية فى ١٩٧٣ ــ ١٩٧٤ (التى أفادت منها رئيسياً شركات النفط الغربية ونخبة عربية حاكمة صغيرة) وبين غياب أى مؤهلات أخلاقية عربية لامتلاك مثل هذا الاحتياطى النفطى الهائل . والسؤال الذى يطرح فى الأعم الأغلب ، دون أى من التحسينات الاستبدالية اللبقة المعتادة ،

هو لماذا يمتلك بشر كهؤلاء العرب حق إبقاء العالم المتطور (الحر ، الديمقراطي الأخلاقي) مهدداً ؟ ومن أسئلة كهذه ينبع الاقتراح المتكرر بأن تقوم قوات الجيش البحرية ـ الأمريكية بغزو حقول النفط العربية .

في الأفلام والتلفاز يرتبط العربي إما بالفسق أو بالغدر والخديعة المتعطشة للدم . ويظهر منحلاً ، ذا طاقة جنسية مفرطة ، قديراً ، دون شك ، على المكيدة البارعة المراوغة لكنه ، جوهرياً ، سادي ، خؤون ، منحط ، تاجر رقيق ، راكب جمال ، صراف ، وغد ، متعدد الظلال : هذه بعض الأدوار التقليدية لعربي في السينما . وكثيراً ما يرى العربي القائد (للصوص المغيرين ، والقراصنة ، والعصاة " من السكان الأصليين ") يزمجر في وجه البطل الغربي المأسور والفتاة الشقراء (وكلاهما مفعم بالصحة والعافية) : " رجالي سيقتلونكما ، لكنهم ـ يحبون أن يتسلوا أولاً " ، وينظر نظرة تنقط خبثاً وشبقاً فيما يتكلم : وهذا حظ شائع من قدر شخصية شيخ فالنتيون . وفي أشرطة الأخبار ، أو أشرطة الأخبار المصورة ، يظهر العرب دائماً بأعداد ضخمة : لا فردية ، لا خصائص أو تجارب شخصية . وتمثل معظم الصور الهيجان والبؤس الجماعيين ، أو الإشارات والحركات اللاعقلانية (والشاذة حتى اليأس ، بالتالي) . وخلف هذه الصور جميعاً يتربص خطر الجهاد المهدد . والعاقبة : الخوف من أن المسلمين (أو العرب) سوف يحتلون العالم .

تنشر الكتب والمقالات بانتظام عن الإسلام والعرب ، دون أن تمثل تغيراً اطلاقاً بالقياس إلى المماحكات الزعاف التي سادت القرون الوسطى وعصر النهضة . ولا يصدق على أية مجموعة عرقية أو دينية سوى العرب أن أي شئ يمكن عملياً أن يقال أو يكتب عنها دون تحد أو احتجاج . لقد قال دليل المساقات لعام ١٩٧٥ ، الذي وضعه طلاب الإجازة في كلية كولومبيا ، عن برنامج اللغة العربية ان كل لفظة من لفظتين في اللغة ذات علاقة ما بالعنف ، وان العقل العربي كما " ينعكس " في اللغة تبجحي دون انقطاع .

وبلغت مقالة قريبة العهد كتبتها إيميت تيرل فى مجلة هاربر درجة أعلى من القذف والتجريح والعنصرية العرقية ، إذ طرحت منظومة تقول إن العرب أساساً قتلة وأن العنف والخديعة محمولان فى المورثات العربية . ويكشف مسح دراسى بعنوان " العرب فى الكتب الدراسية الأمريكية " معلومات خاطئة إلى الحد الأقصى من الادهاش ، أو بالحرى ، تمثيلات على درجة قصوى من الفظاظة ، لمجموعة عرقية ـ دينية . إذ يؤكد أحد هذه الكتب " أن القلة من أهل هذه المنطقة العربية يعرفون أن ثمة طريقة أفضل للحياة " ، ثم يتابع سائلاً ببراءة سلابة ، " ما الذى يربط بين شعوب الشرق الأوسط ؟ " والجواب ، المعطى دون تردد ، هو " أن الرباط النهائى هو عدائية العرب ـ وكرههم ـ لليهود وللأمة الإسرائيلية " . وجنباً إلى جنب مع مثل هذه المادة ، ثمة ما يلى ، فى كتاب آخر ، عن الإسلام : " بدأ الدين الإسلامى ، المسمى الإسلام ، فى القرن السابع . وقد بدأه رجل أعمال ثرى من شبه الجزيرة العربية يدعى محمد . وقد ادعى أنه نبى . ووجد أتباعاً بين العرب الآخرين . وأخبرهم بأنهم اختيروا لكى يحكموا العالم " . وتتلو هذه النتفة من المعرفة نتفة أخرى مثلها فى دقتها : " بعد موت محمد بقليل ، سُجلت تعاليمه فى كتاب يدعى القرآن . وصار الكتاب المقدس للإسلام " [1] .

أثر الاستشراق على النخبة الثقافية العربية المعاصرة :

يقول د. إدوارد سعيد (إن الاستشراق ، رغم إخفاقاته ، ومصطلحه المعاظل الذى يثير الشفقة ، وعرقيته التى لا تكاد تحجب ، وجهازه الفكرى الرقيق رقة الورق ، يزدهر اليوم بالأشكال التى حاولت أن أصفها . وبالفعل ، فإن ثمة ما يدعو إلى القلق فى كون تأثيره قد انتشر إلى " الشرق " نفسه : فصفحات الكتب والمجلات باللغة العربية (وباليابانية ، واللهجات الهندية

---

[1] الاستشراق صـ ٢٨٦ ـ ٢٨٨ .

المختلفة ، واللغات الشرقية الأخرى ، دون شك) تمتلئ بتحليلات من الدرجة الثانية لـ " العقل العربى " ، والإسلام ، وأساطير أخرى ، يقوم بها كتاب عرب . وقد انتشر الاستشراق أيضاً فى الولايات المتحدة الآن وقد أضافت الأموال والموارد العربية رهجة فتنة لا يستهان بها إلى " الانشغال " التقليدى بالشرق الهام استراتيجياً . والحقيقة هى أن الاستشراق قد استوعب بنجاح من قبل الامبريالية الجديدة ، حيث لا تفند منطلقاته السائدة ، بل إنها لتثبت وتؤكد ، المخطط الامبريالى المستمر للسيطرة على آسيا .) .

يقول د. إدوارد سعيد (فى الجزء الوحيد من الشرق الذى أستطيع أن أتحدث عنه بشئ من المعرفة المباشرة يمكن اعتبار التلاؤم المتبادل بين الطبقة المفكرة والامبريالية الجديدة أحد الانتصارات الخاصة للاستشراق . فالعالم العربى اليوم كوكب تابع ، فكرياً ، وسياسياً ، وثقافياً للولايات المتحدة . وليس هذا فى ذاته بشئ يدعو إلى الرثاء ؛ غير أن الشكل المحدد بعلاقة التكوكبية نفسه يدعو إلى ذلك . خذ بعين الاعتبار أولاً أن الجامعات فى العالم العربى تدار بشكل عام تبعاً لنسق ما موروث عن ، أو مفروض مباشرة من قبل ، قوة مستعمرة سابقة . وتجعل الظروف الجديدة واقعيات المنهج الدراسى قبيحة حتى الرعب تقريباً : صفوف يحتشد فيها مئات الطلبة ، جهاز تدريس مدرب تدريباً سيئاً ، ومرهق بالعمل ، ويتلقى رواتب سيئة ، تعيينات سياسية ، الغياب شبه المطلق للأبحاث المتقدمة ولوسائل البحث العلمى ، وأهم من ذلك، الافتقار إلى مكتبة واحدة لائقة فى المنطقة بأسرها . وفيما كانت بريطانيا وفرنسا قد سيطرتا على الآفاق الفكرية فى الشرق بفضل أهميتهما وثرائهما ، فإن الولايات المتحدة هى التى تحتل تلك المكانة الآن ، بصورة تؤدى إلى النتيجة التالية : وهى أن القلة من الطلاب الذين يبشرون بخير والذين ينجحون فى الارتقاء عبر النظام التعليمى يتلقون التشجيع للحضور إلى الولايات المتحدة لمتابعة دراساتهم العليا . وفيما يظل صحيحاً أن بعض طلاب العالم العربى ما يزالون يذهبون إلى أوروبا للدراسة ، فإن الغالبية

العظمى يأتون إلى الولايات المتحدة ، ويصدق هذا على طلاب ما يسمى الدول الجذرية بقدر ما يصدق على الدول المحافظة كالمملكة العربية السعودية والكويت . وإلى جانب ذلك ، فإن نظام الرعاية فى عالم الدراسة ، والأعمال ، والبحث العلمى يضع الولايات المتحدة فى موضع الآمرة ذات السلطة الكلية على الأمور ؛ فالمصدر مهما بلغ من عدم كونه مصدراً حقيقياً ، يعتبر الولايات المتحدة . ثمة عاملان يجعلان الموقف حتى إلى درجة أبعد وضوحاً نصراً للاستشراق . وبقدر ما يسع المرء أن يصدر تعميماً كاسحاً ، فإن الميول المحسوسة للثقافة المعاصرة فى الشرق الأدنى تسير على هدى النماذج الأوربية والأمريكية ، وحين قال طه حسين عام١٩٣٦ عن الثقافة العربية إنها أوربية ، لا شرقية ، فقد كان يسجل هوية النخبة الثقافية المصرية التى كان هو أحد أعضائها المتميزين تميزاً كبيراً . ويصدق الشئ ذاته على النخبة الثقافية العربية اليوم ،) .

(والنتيجة المتوقعة لهذا كله هى أن الطلاب الشرقيين (والأساتذة الشرقيين) ما يزالون يريدون الحضور إلى الولايات المتحدة والجلوس عند أقدام المستشرقين الأمريكين ، ثم العودة فيما بعد لتكرار الشعيرات اللغوية التى ما فتئت أصفها بأنها مذهبيات جامدة استشراقية على مسامع جمهورهم المحلى . ونظام إعادة إنتاج كهذا يجعل من الحتمى أن يستخدم الباحث الشرقى تدريبه الأمريكى ليشعر بالفوقية على أبناء وطنه لأنه قادر على " تدبُر " النظام الاستشراقى وفهمه واستخدامه ؛ أما فى علاقته بمن هم أسمى منه مكانة ، المستشرقين الأوربيين والأمريكيين ، فإنه سيبقى " المخبر الذى ينتمى إلى السكان الأصليين " . وهذا هو بحق دوره فى الغرب، إذا كان من حسن الحظ بحيث يتاح له البقاء فيه بعد إنهاء تدريبه المتقدم . ومن ثم فإن معظم المساقات الأولية فى اللغات الشرقية تُدرس من قبل "مخبرين أصليين " فى جامعات الولايات المتحدة اليوم ؛ وكذلك فإن القوة ضمن النظام (فى الجامعات والمؤسسات ، وما إليها) هى حصرياً تقريباً فى

أيدى غير الشرقيين ، رغم أن نسبة الشرقيين إلى غير الشرقيين بين الأساتذة المقيمين لا تعطى الأفضلية لغير الشرقيين إلى هذه الدرجة الجارفة .

ثمة إشارات أخرى كثيرة من أنماط مختلفة إلى الكيفية التى يتم بها الحفاظ على السيطرة الثقافية عن طريق القبول الشرقى بقدر ما يتم عن طريق الضغط الاقتصادى المباشر الخام من قبل الولايات المتحدة ، وأنها لصدمة موقظة أن نجد ، على سبيل المثال ، أنه فيما توجد عشرات من المنظمات لدراسة الشرق العربى والإسلامى فى الولايات المتحدة ، فليس ثمة مؤسسة واحدة فى الشرق لدراسة الولايات المتحدة ، وهى أعظم المؤثرات الاقتصادية والسياسية إطلاقاً فى المنطقة . وأسوأ من هذا ، لا يكاد يكون ثمة من معهد ذى مكانة حتى متواضعة فى الشرق مكرس لدراسة الشرق <نفسه>. غير أن هذا كله ، فى اعتقادى ضئيل بالمقارنة مع العامل الثانى الذى يسهم فى انتصار الاستشراق : وهو حقيقة < طغيان > الاستهلاكية فى الشرق . فالعالم العربى أو الإسلامى عامة عالق فى صنارة نظام السوق الغربى . وما من أحد يحتاج إلى التذكير بأن النفط ، المورد الأعظم للمنطقة، قد امتص امتصاصاً كاملاً ضمن اقتصاد الولايات المتحدة . ولا أعنى بذلك وحسب أن شركات النفط العظيمة واقعة تحت سيطرة النظام الاقتصادى الأمريكيى ؛ بل أعنى أيضاً أن قاعدة عائدات النفط العربية ، كى لا نقول شيئاً عن التسويق ، والبحث ، والإدارة الصناعية ، قائمة فى الولايات المتحدة ، وقد جعل هذا من أثرياء النفط العرب عملياً مستهلكين هائلين للصادرات الأمريكية. والنقطة التى أثيرها هى أن العلاقة علاقة وحيدة الإتجاه ، تمثل فيها الولايات المتحدة زبوناً مختاراً لعدد ضئيل جداً من المنتجات (النفط ، واليد العاملة الرخيصة ، رئيسياً) ويمثل العرب مستهلكين شديدى التنوع لعدد هائل من منتجات الولايات المتحدة ، المادية والعقائدية .

وقد كان لهذا عواقب كثيرة . ثمة عملية تسوية هائلة للذوق فى المنطقة ، متجسدة لا فى الترانزستورات ، والجينز الزرقاء ، والكوكا كولا

وحسب ، بل كذلك فى الصور الثقافية للشرق التى توفرها وسائل الاعلام الأمريكية وتستهلكها دون تفكير جماهير التلفاز الضخمة . وليست المفارقة الضدية المتجسدة فى أن يعتبر عربى نفسه " عربياً " من النمط الذى تنتجه وتسوقه هوليوود سوى النتيجة الأكثر بساطة لما أشير إليه .

وهناك نتيجة أخرى هى أن اقتصاد السوق الغربى وتوجهه الاستهلاكى خلقاً (ويخلقان بنسبة متسارعة) طبقة من المتعلمين يوجّه تشكلهم الفكرى نحو إرضاء حاجات السوق . فثمة تأكيد كبير على الهندسة ، والأعمال ، والاقتصاد ، مما هو واضح ؛ لكن طبقة رجال الفكر الانتلجنسيا هى ذاتها عنصر مساعد فيما تعتبره الاتجاهات الرئيسية التى أطفئت فى الغرب .

وقد رسم دور هذه الطبقة وصيغ لها بوصفها طبقة " مُحدثة " ، أى أنه تمنح الشرعية والسلطة المرجعية لأفكار حول التحديث والتقدم والثقافة تتلقاها من الولايات المتحدة بصورة رئيسية . ويقوم الدليل الباهر على هذا فى العلوم الاجتماعية . وهكذا فإذ ينجلى كل شئ ثمة تقبل مشارك فى صور الاستشراق ومذاهبه . وثمة أيضاً تعزيز قوى جداً لهذا فى التبادل الاقتصادى والسياسى والاجتماعى : فالشرق الحديث ــ بإيجاز ــ يشارك فى شرقنة نفسه) [1] .

* * *

وهكذا يتأكد لدينا نتيجة لهذه الدراسة الفذة للدكتور إدوارد سعيد ما كان يتردد من قبل فى الصدور حول دور الاستشراق فى تشويه صورة الإسلام ، ويصبح لدينا اليوم يقين ـ نتيجة لتلك الدراسة بأن الاستشراق ما هو إلا مؤسسة تقوم بدور تاريخى كجهاز مناعة تعضّى ــ أو قل إن شئت " تعضون " ــ فى بنية الحضارة الأوربية وتغلغل فى أعصابها وشرايينها

---

[1] الاستشراق صـ ٣١٩ ـ ٣٢٢ .

وعظامها ليرد عنها أى اقتراب إسلامى ، مغلقاً منافذ تلك البنية دون أى شعاع حقيقى من الإسلام .

حتى ما يود البعض منا أن يعتبره تحسناً أو إنصافاً فى آداء بعض المستشرقين ، فإنه حسب دراسة إدوارد سعيد (استراتيجيات لإعادة التصرف بـ " المادة " ضمن " الحقل " وتوزيعها .) إنه يؤدى إلى تغيرات ضمن الحقل ثم يعين على خلق وضع جديد ، مثلما يؤدى إدخال بوصلة جديدة على سطح توجد عليه عشرون بوصلة إلى اهتزاز البوصلات جميعاً . ثم إلى استقرارها فى تشكيل جديد قادر على الاستيعاب [1] .

أما خروج مستشرق ما على الحقل ليعلن إسلامه فإنه يصبح طبقاً لجهاز المناعة ذاك سبباً كافياً لإخراجه ـــ حسب مواصفات المؤسسة الإستشراقية ـ من زمرة البحث العلمى المعترف به فى المؤسسة ليصير أى شئ غير كونه مستشرقاً " رصيناً " .

وهكذا تقوم المؤسسة الاستشراقية بالدور الفعال ـ لا فى فهم الإسلام وتقديمه للغرب المسحيى " موضوعياً " كما كان يفترض ـــ ولكن فى زرع الألغام فى الحقل الذى يفصل ما بين الحضارة الإسلامية ، والحضارة الغربية .

---

[1] المصدر السابق صـ ٢٧٥ .

الحل الإسلامي
لمشكلة الحضارة
بين التعدد والصراع

هل يمكن أن يكون الحل فى انتصار الحضارة التى تقوم على العرقية وتعمل وفقاً لسياسة التطهير العرقى ، والإبادة البشرية والتصفية الجسدية : فى الأندلس ، وفى أمريكا " الهنود الحمر " وفى افريقيا (منات الملايين فى تصدير السود إلى أمريكا ...) فى التفرقة العنصرية ، وأخيراً فى شرق أوربا ، : البوسة والهرسك ... وبلاد البلقان ، وحلف الناتو الذى أعلن عدواته للإتجاه إلى الإسلام [1] . ثم فى شرقنة الإسلام ؟

تلك حضارة غبية لا ترى أبعد من موقع أقدامها .

كيف لهولاء أن يطهروا العالم من المسلمين ؟

مليار مسلم ؟

هنا تظهر عناية الله بالمسلمين فى التكاثر وزيادة النسل . إنهم لا يبتعدون فى سياستهم تلك عن غباء السياسة الإسرائيلية التى تظن أنها يمكن أن تسحق مائتى مليون عربى .

فعناصر المقاومة فى الإسلام مكفولة :

أ - القنبلة الذّرية ، فى مواجهة القنبة الذّرية .

ب - المقاومة الخالدة فى بقاء قدس أقداس هذه الحضارة " القرآن".

جـ - بشارة الرسول ﷺ " بدأ الإسلام غريباً . وسيعود غريباً كما بدأ " .

إن الاستمرار فى هذا الغباء لن تجنى منه الإنسانية غير المواجع والآلام .

ولكنه ـ أبداً ـ لن يحقق أغراضهم فى إزالة " الآخر " وتلك عمق أعماق سياستاتهم ...

مقارنة :

إننا نقول لقيادات الحرب فى صفوف الحضارة الغربية .. لقد وسعناكم فى إطار أهل الكتاب .

---

[1] أنظر تصريح الأمين العام للحلف فى صحف ١٩٩٥/٢/٣ .

ففى أى إطار وسعّيونا أنتم ؟ وبماذا سميتمونا ؟

هل وسعتنا حقوق الإنسان الصادرة عنكم وهى حقوق مشروطة بالتخلص من حركة النهضة الإسلامية ؟

هل وسعتنا حريتكم الفكرية ، وهى تحتضن مقولات الفسق والفجور فى روايات سلمان رشدى وما أشبهه ؟

ولا تسع بحثاً علمياً حول مصداقية إبادة اليهود فى المانيا كتبه روجيه جارودى ؟

هل وسعتنا علمانيتكم ، وهى مشروطة بالتخلص من الإسلام باعتباره لا يأخذ بالعلمانية ؟

هل وسعتنا ديموقراطيتكم وهى مشروطة بالتخلص من الإسلام باعتباره آخذاً بشريعة إلهية ؟

هل وسعنا نظامكم العلمانى ـ فى شرق أوربا ـ البوسنة والهرسك وبقية المسلسل ؟

هل وسعتنا نظمكم التربوية وأنتم الذين لا زالت مناهجكم تلقن تلاميذكم الأكاذيب والأحقاد ضد الحضارة الإسلامية ـ كما هو ثابت فى الدراسات التى تناولت هذا الموضوع فى مصادركم نفسها ؟

ما الحل ؟ وأين التعدد ؟

إذا أردنا أن نجيب من منطلق قيمى بحت فلابد أن نتفق على أن الحل الوحيد هو فى انتصار الحضارة التى تسمح للآخر بأن يوجد على ظهر هذه الأرض .

الحل هو فى انتصار الحضارة التى تتعايش فى ظلها الأقليات والطوائف .

الحل هو فى انتصار الحضارة التى تؤمن للثقافات المختلفة أن تعبر عن ذاتها ؟

الحل هو فى انتصار الحضارة التى تسمح للأفكار المختلفة بأن تعبر عن ذاتها فى كافة أرجاء المعمورة ولو وقفت منها (حضارتنا الرائدة) موقف النقد والنكران .

الحل هو فى انتصار الحضارة التى تؤمن بأنه " لا إكراه فى الدين " .

الحل هو فى انتصار الحضارة التى تمتثل أمر الله فى قوله تعالى :

﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يُخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتُقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ﴾ .

الحل هو فى انتصار الحضارة التى تؤمن بقوله تعالى **﴿ يا أيها الناس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا .. ﴾** .

الحل إذن هو فى انتصار الحضارة الإسلامية ، فهى التى انطوت ـ مع الخلاف ـ على السماحة ، ومع الإنكار على التسامح ، : نظرياً كما انطوت على ذلك عمليا ...

ولأمر ما ـ وربما كان هذا الأمر هو ما نحن فيه ... ضمن الإسلام (لأهل الكتاب ، موقعاً حصيناً فى المجتمع الإسلامى .

وقام المسلمون على تقدير هذا الموقع ، ولم يخامرهم قط خاطر التطهير العرقى ، أو إبادة " الآخر " ...

لقد كانت الحضارة الإسلامية وعاء انصهرت فيه القوميات والجنسيات والعروق والشعوبيات ، ابتداء من أقصى الشرق فى الصين ، مروراً بفارس ، والشرق الأوسط وتركيا والأندلس ...

وكما يقول شيخ الأزهر الراحل (الإمام الأكبر الشيخ جاد الحق إبراهيم جاد الحق رحمه الله) فى رسالة له إلى مؤتمر برلمان " أديان العالم" الذى انعقد فى شيكاغو فى الفترة من ٨/٢٨ إلى ١٩٩٣/٩/٤ .

(إن المسلمين لم يقترفوا فى تاريخهم الطويل ما يشينهم .

فلم يضطهدوا شعباً ولم يُكرهوا أحداً على الدخول فى الإسلام .

ولم يقوموا بعمليات تطهير عرقى أو تفرقة عنصرية ، ولم يحدث أن أبادوا أتباع دين من الأديان الأخرى . وليس أدل على ذلك من أن البلاد التى دخلت فى الإسلام ـ منذ كان وفى العصور المتعاقبة وللآن ـ مازال بها الجمع الغفير من الديانات الذين كانوا بتلك البلاد حين دخلها الإسلام ، ولو كان الحكم الإسلامى وقتذاك قد مارس ما يمارسه أصحاب الديانات الأخرى فى العصر الحاضر ما بقى فى بلاد المسلمين من أتباع الأديان الأخرى أحد) [1] .

وأنظر إلى ما يقوله الأستاذ الدكتور أحمد طربين ـ أستاذ التاريخ الإسلامى عن معاملة الدولة العثمانية للمسيحيين :

(يبدو أن كثيراً ممن كتب فى هذا الموضوع ، يرى أن الدولة العثمانية أساءت معاملة غير المسلمين ، وخاصة بعد أن ضمت إليها العالم العربى الإسلامى ... وبالمقابل فإن عديداً من المؤرخين المنصفين يرون أن السلاطين برغم اعتقادهم فى قرارة نفوسهم بأن المسيحيين لابد أن يكونوا حلفاء طبيعيين للقوى الأوربية المسيحية المعادية للعالم الإسلامى ، فإنهم لم يتجاوزوا حدود معاملة المسلمين السمحة ـ السابقة ـ بل كان تسامح الأتراك العثمانيين مع مسيحيى الولايات العربية أشد وضوحاً من تسامحهم مع مسيحيى البلقان الذين كانوا فى بلادهم أغلبية تتآمر مع النمسا . كما يرون أن الدولة العثمانية حافظت على أملاكهم وحرية عبادتهم وكنائسهم ، وفتحت لهم أوسع أبواب العمل الحر فى الزراعة والصناعة والتجارة ، فانتظموا فى سلك الحرف المختلفة على قدم المساواة مع زملائهم المسلمين ، وكانوا معهم فى تعاطف ود ، بل إنهم برزوا فى ميدان التجارة الخارجية لصلتهم مع الأوربيين ، وتكونت منهم طبقة برجوازية غنية ، وها هى ذى سجلات المحاكم الشرعية فى مختلف الحواجز العربية تشهد بذلك ...) [2] .

---

[1] مجلة الأزهر ـ ديسمبر ١٩٩٣ .

[2] أنظر المجلة العربية للعلوم الإنسانية التى تصدر عن جامعة الكويت العدد ٣١ صـ ٢٦٩

إن عجز الحضارة الأوربية المعاصرة عن دور التسامح هذا هو الذى يشكك فى إمكانية التعدد الحضارى بعيداً عن مظلة الإسلام .

إن الإسلام هو المرشح الوحيد لوراثة الحضارة المعاصرة ـ لمصلحة الإنسانية ـ وليقوم بنفس الدور الذى قام به فى وراثة الحضارة اليونانية والرومانية والفارسية من قبل .

هناك كانت الوراثة بأن ضم العمل إلى العلم .

واليوم فإن الوراثة بأن يضم الإيمان إليها .

وهذا لا يعنى القول بأن الحضارة الإسلامية تنحصر ضمن قيود ضيقة ، أو أنها خاضعة دائماً لتفاصيل ما تم إنجازه فى تاريخ الحضارة الإسلامية .

إن أقصى ما نقرره من قيود للحضارة الإسلامية لا يتعدى الثلاثية التى أشرنا إليها : العلم والعمل والإيمان .

وهى بعد ذلك ـ ومع ذلك ـ تقبل أن تتم إنجازها فى صور متعددة ولكنها متقاربة ، فيصبح التعدد هنا كالتنوع داخل الجنس الواحد ، فيخرج إلى الوجود حضارة إسلامية ينتجها العرب ، كما يخرج إليه حضارة إسلامية ينتجها الفرس ، أو حضارة إسلامية ينتجها العثمانيون ، أو حضارة إسلامية تنتجها أوربا .

إن الجمع بين أركان الحضارة الثلاثة التى هى العلم والعمل والإيمان هو مجمع تحديات المستقبل بالنسبة للإنسان على هذه الأرض ، وهنا تبدو لنا ملامح نصرة الإسلام فى مستقبل صنع الحضارة خصوصاً إذا لاحظنا بعض الظواهر التى تبدو أمامنا منذ الآن ومن أهمها :

١ - أن العالم المسيحى صائر حتماً إلى الأخذ بوجهة نظر الإسلام عن المسيح ، وهذا ما تؤكده الدراسات التى يقوم بها اللاهوتيون الكبار فى أوربا .

٢ - أن الملحدين فى العالم يتحولون ـ كما نرى ـ إلى الأخذ بدين من الأديان ، إذ هم يتناولون إلحادهم كدين وهم سوف يلتفتون حتماً إلى إجراء المقارنة بين ديانة الإلحاد ، وبين الأديان الأخرى ، وليس غير الإسلام دين يصلح لمخاطبة هذه العقول .

٣ - أن عالم القوة النووية صائر حتماً ـ كما نرى ـ إلى فقدان القدرة على استخدامها ، ولو تعجل فى استخدامها لكان ذلك ضد مصلحة العالم الذى يملكها إذ تتساوى حينذاك فى الخراب جميع الأقدام .

٤ - أن العالم الإسلامى صائر حتماً إلى ولادة جديدة ، وهذا هو مصدر الفزع عند كهنة الحضارة الغاربة .

والخطر الذى يتهدده هو خطر التعجل ، تعجل الولادة قبل أوانها من ناحية ، وخطر الغفلة عما تستوجبه ساعة الميلاد من ناحية أخرى ، وعليه أن يستفيد من درس العروبة فى معالجاتها الخاطئة ، لقضية الخلافة الإسلامية عند سقوط الدولة العثمانية أولاً ، وقضية الوحدة العربية ثانياً ، وقضية فلسطين ثالثاً ، وقضية النظام العالمى الجديد أخيراً .

ويبقى عبء خطير على العاملين فى مجال الدعوة الإسلامية أن يعدوا أنفسهم لهذا الميلاد بالتخلص من سلبياتهم ، ومنها ما يقع فيه بعض فصائلهم من خشونة فى الأسلوب تارة ، ومن نظرة تشاؤمية للمستقبل تارة ، ومن فقر فى القدرة على الاجتهاد تارات .

وراثة الحضارة

إذا كانت الصين ــ فيما يقال ــ تتطلع بمليارها إلى وراثة هذه الحضارة المتداعية ، فقد يتساءل البعض منا : ــ لم لاتتطلع بدورنا ــ إن صلح أمرنا كما يقول الدكتور رشدى فكار [1] ــ إلى مكاننا فى هذه الوراثة ؟ بمليارنا الإسلامى الذى يرتكز على الوطن العربى والذى يمتد إسلامياً فى آسيا وافريقيا ؟

الآخرون المتطلعون إلى هذه الوراثة يتفاوتون فى أرتكازهم على وحدة الأرض ، أو وحدة اللغة ، أو وحدة التاريخ ، أو وحدة العقيدة ، بينما نحن المسلمين نرتكز على هذه الركائز جميعاً ؟

لقد فاتت الفرصة على اليابان لوراثة هذه الحضارة فيما يقوله هارولد لاسكى (لقد كان من الممكن أن تتعلم اليابان كيف تكون قنطرة بين الشرق والغرب ، ولكن يبدو أنها لم تستفد شيئاً سوى ذلك الدرس الغث : الاستعمار الاقتصادى ، لقد اكتشفت " المهارة " فى لندن وبرلين وباريس ونيويورك ، ولكنها ــ أى اليابان لم تكتشف مثلهم الهدف الكبير الذى تهب له هذه المهارة..) [2] .

ويتفاءل بعض المفكرين الغربيين بوراثة الإسلام لهذه الحضارة المتداعية ، إذ يقول روجيه جارودى (لقد سبق للإسلام أن أنقذ امبراطوريات متهافتة من الفناء فى القرن السابع الميلادى .) .

ولعل هذا هو ما يبيته القدر للإسلام مرة أخرى أن يرث الحضارة المعاصرة ليعطيها ما قد فقدته : هدف الإيمان

أن تكون الحضارة لله .

يقول الله تعالى : ﴿ **إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده** . ﴾ ١٢٨ الأعراف .

---

[1] أنظر كتابة " نهاية عمالقة صـ ١٣٧ - ١٣٩ " .

[2] محنة الديموقراطية لهارولد لاسكى جـ ١ صـ ١٢ ــ ١٣ .

ويقول تعالى ﴿ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون . ﴾ ١٠٥ الأنبياء .

ويقول تعالى ﴿ وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها ﴾ ١٣٧ الأعراف

ويقول تعالى ﴿ وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطؤوها ﴾ ٢٧ الأحزاب .

ويقول ﷺ (بدأ الإسلام غريباً ويعود غريباً كما بدأ) .

لكن السؤال الذى ينبغى أن يلح على المسلمين اليوم هو : إذا كان الإسلام هو المرشح الوحيد لإنقاذ هذه الحضارة أو لوراثتها ، فهل المسلمون المعاصرون مرشحون أيضاً لهذه الوراثة ؟

إنه كما يقول بعض المفكرين ـ الدكتور يحيى الرخاوى ـ لا يمكننا ذلك (ونحن لا نفعل إلا أن نكرر حياتهم على مستوى أفشل وبمحتوى أضحل) .

(ولن يغير من الأمر شيئاً أن نضيف إلى نموذجهم نشاطاً خاصاً بالجانب الوجدانى القلبى المتدين .. وليس بديلاً ما ندعيه من ممارسات إسلامية لمجرد أن اللافتة تعلن شيئاً مختلفاً عن لافتتهم ، نمارس تحته ما يملونه علينا .

ولن ينفعنا أن نشق أنفسنا إلى نصفين : فنعيش حياتنا العلمية والسياسية والاقتصادية بأسلوب علمانى تمت صياغته هناك . ونعيش حياتنا الروحية بتسليم عاطفى حالم .

ولن يصلح من شأننا أن نستغل الحماس للإسلام لتجميع طاقات الشباب لتحقيق تغيير يؤدى فى النهاية إلى الوجه الآخر من نفس الحضارة العلمانية التى نشيع قرب غروبها) .

ثم يستمر قائلاً : (ليس بالضرورة أن يكون تأزم حال المسلمين يعنى تأزم الإسلام .

فكما نكرر دائماً : " أزمة جيل ليست بأزمة مصير " و " أزمة نخبة ليست بأزمة أمة ") [1] .

غير أن المسلم المرشح لهذا الدور لن يتحقق عن طريق الإشباع الاستهلاكى ، والتطلع إلى شهوات الدنيا ومتاعها أو جمع قنات موائد الكبار من الصواريخ وأسلحة الدمار .

وإنما يتحقق مستعيداً لذاته ، وبنائه ، كإنسان فى عصر عزت فيه إنسانية الإنسان .

فهو بمليارد الذى نطمع أن يتحلى فى سلوكه بالقرآن ، يمثل الإنسان المتوازن المتعادل روحاً وجسداً ونفساً .. المتعادل فى مشيته وإنفاقه ، بل حتى فى صوته الخاشع لربه ، ومنه يستمد الهدى والنور .

الإنسان الذى يعيد إلى التصميم الهندسى للحضارة كما أراده الله : جانب الإيمان فى ثلاثيته : العلم والعمل والإيمان .

هذا المسلم بسلوكه المتميز يمكنه أن يكون هو أداة التصحيح لمواريث هذه الحضارة ، بإرجاعها إلى طريق " الحضارة لله " .

الإسلام ممثلاً فى عصر النبوة بالوحى الخالد ، والسنة الشريفة والاجتهادات البناءة فى تراث المسلمين هو الذى يشق طريقه الآن إلى قلوب البسطاء فى كل مكان ، كما يشق طريقه إلى العمالقة فى حضارة الغرب ، بعد أن أعيتهم الطرق ، طالبين النجاة لعقل كرمه الله ، وإنسان أسلم وجهه لله .

ولكن ذلك كله لن يكون إلا وفق سنن الله فى الكون .

---

[1] الأهرام ١٩٨٤/١/١٦

إن العناية الإلهية تظللنا فى جميع أدوار حياتنا ، ولكن من العناية الإلهية أيضاً أن يكون هذا الكون خاضعاً لنظام ، وأن تكون الحضارة خاضعة لقوانين .

إنه لا عناية بغير النظام .

ولا رحمة بغير القوانين .

قوانين الله فى التغيير ، قوانين الله فى النصر ، قوانين الله فى الحصول على الدنيا ، قوانين الله فى عموم البلاء ، قوانين الله فى التلاؤم بين الحكام والمحكومين ، قوانين الله فى نمو المال ، قوانين الله فى أكل الحلال ، قوانين الله فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، قوانين الله فى قبول الدعاء أورده ... !

كيف نطلب الرحمة بإبطال القوانين ؟

كيف نطلب الرحمة باللارحمة ؟

فكيف نتصور إذن أن يكون مسلمو اليوم هم ورّاث هذه الحضارة ؟

ما الحكم فى قوم كلما وجه إليهم أمر للتنفيذ مصمصوا شفاههم قائلين : عفواً نحن غير قادرين ؟

أليس من قوانين الله ـ منطقياً ـ أن يتم الاستغناء عنهم ؟

ما الحكم فى قوم كلما واجههم تكليف إلهى مصمصوا شفاههم قائلين : نحن غير قادرين ؟

إذا دُعُوا إلى التخلص من الربا قالوا : إن كان حراماً فنحن غير قادرين ؟

إذا دُعُوا إلى الجهاد قالوا : إن كان واجباً فنحن غير قادرين .

إذا دُعُوا إلى الوحدة قالوا : خير ، لكن نحن غير قادرين ؟

إذا دُعُوا إلى الأخوة الإسلامية : قالوا : جميل ، ولكن نحن غير قادرين ؟

وإذا دُعُوا إلى تصحيح فى سياسة التعليم يربط فيه بين العلم والعمل والإيمان قالوا : تحيرنا بين النظريات والبرامج ، وما نحن بقادرين .

وإذا قيل لهم : صححوا علاقتكم بالدنيا وأجعلوها فى أيديكم لا فى قلوبكم قالوا : تلك صوفية ، وما نحن بقادرين .

وإذا قيل لهم : أحرصوا على الحرية ، وأسلكوا اليها من باب العبودية لله وحده .. قالوا : تلك مثل عليا وما نحن بقادرين .

وإذا دُعُوا إلى شئ من الاقتصاد يبتعدون فيه عن الإسراف والتبذير وتمويل رأسمالية العدو ، قالوا عادات ، وما نحن بقادرين .

وإذا دُعُوا إلى قلب المعادلة السائدة بينهم بين اللهو والجد ، خذوا أنفسكم بالجد ، وأجعلوا اللهو هامشاً محدوداً قالوا : تلكم دعوة إلى الكآبة وما نحن بقادرين .

وإذا دُعُوا إلى تحرى الحِل فى مأكلهم ومشربهم والبعد عن الحرام والمشتبهات ، قالوا : وكيف نعيش ؟

نحن غير قادرين .

وإذا دُعُوا إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر قالوا : وما شأننا ؟ نحن غير قادرين ؟

وإذا دُعُوا إلى الأخذ على يد الظالم قالوا : صعب ، ونحن غير قادرين .

وإذا دُعُوا إلى مخاصمة الفسق فى الفن وفى الاعلام .. قالوا : إزاى؟ نحن غير قادرين .

وإذا دُعُوا إلى إلزام نسائهم بالحجاب ، قلبوا شفاههم ، وقالوا : نحن غير قادرين .

وإذا دُعُوا إلى تربية أولادهم على طاعة الله .. قالوا نحاول ، ولكن نحن غير قادرين .

وإذا دُعُوا إلى العفة وما يوصل إليها من الكف عن إثـارة الشـهوات ، نظـروا بجـانب مـن عيونهـم إلـى نظريـات فـى علـم النفس ، وعلـم الجمـال ، وقالوا: نحن غير قادرين .

وإذا دُعـى علمـاؤهم إلـى الجهـر بكلمـة الحـق ، قـالوا : نحـن غـير قادرين.

وإذا دُعى حكامهم إلى عدم موالاة الكافرين .. قـالوا : حسناً ، ولكنـا غير قادرين .

وإذا دُعُوا إلى التكافل المعيشـى مـع الذيـن يموتـون جوعـاً بـالآلاف ، قالوا : نحن غير قادرين .

وإذا دُعُوا إلى التضامن مع المستضعفين من إخوانهم الذيـن يذبحـون بالآلاف ، قالوا : نحن غير قادرين .

بماذا شهد هؤلاء على أنفسهم ؟

هل ينطبق عليهم رفع التكليف فى قوله تعالى .. ﴿ **لا يكلف الله نفساً إلا وسعها** .﴾ .

أليس معنى الآية ابتداء أن الله لا يكلف إلا بالوسع ؟ فهم مـادامـوا قـد كلفوا فمعنى هذا أنه فى وسعهم ؟

وعلـى هـذا الأسـاس يكـون قولهـم نحـن غـير قـادرين محـض كـذب وتهرب ؟ !

وهل ينطبق عليهم رفع التكليف إذا كانوا هم أنفسهم مساهمين بدرجـة أو بأخرى فى صنع الخطأ أو الخطيئة ؟

أو مستفيدين بدرجة أو بأخرى ـ باستمرار هذا الخطأ أو الخطيئة ؟

أليست الأغلبية اليوم دائرة بين هذا وذاك .. بين صانع ، أو مستفيد ؟

قد يقال :

المشكلة ترجع إلى تضارب الأفكار ، واختلاطها ، وعلى سبيل المثال:

يقول بعضنا : العلمانية ، كلها شر ، ولكن آخرين يرفعون إمكانية التضامن معها ، والتصالح مع بعض فصائلها .

هكذا فإن الرؤية قد أصيبت بالاختلاط .

حسناً ، فمتى يكشف الحق ؟

هنا : لابد من الابتلاء .

قد يقال :

المشكلة ترجع إلى اختلاط فى البشر ، حيث لا يظهر فيهم مؤمن خالص ، من منافق خالص ، من كافر خالص .

ويقول بعض هؤلاء : تحتاج الحركة الإسلامية إلى فصل هذه الفصائل ، وإلا وقعت الحركة فى شر النتائج ، شر الفشل .

حسناً : فمتى ينفصل هؤلاء من هؤلاء ؟

هنا : لابد من عذاب ينزل للتمييز ، فالمؤمن ينجلى كما ينجلى الذهب فى النار ، وغيره يتساقط كما يتساقط التراب ، أو كما يتساقط الغبار .

هنا لابد من سريان قانون التمييز .

﴿ ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ﴾ ١٧٩ آل عمران .

﴿ ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً فيجعله فى جهنم ، أولئك هم الخاسرون . ﴾ ٣٧ الأنفال .

﴿ والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذى خبث لا يخرج إلا نكداً، كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون . ﴾ ٥٨

قد يقال : التمييز موجود ، فنحن نعرف الطريق ، ونعرف من هم أربابه ، ولكنا غير قادرين .

غير قادرين على فعل شئ .

والله لا يكلف نفساً إلا وسعها .

فعندئذ يقال :

وإذا كنتم قد خرجتم من إطار المكلفين فما معنى وجودكم ؟

إنكم بذلك قدمتم شهادة الإزالة .

هنا : لابد من عذاب ينزل ـ لا لمحض الابتلاء ، ولا لمحض التمييز ولكن لغرض المحق ، والإزالة كما تمت إزالة أقوام من قبل .

منطقياً : ماذا ينتظر لقوم كلما واجههم تكليف إلهى مصمصوا شفاههم قائلين : لا حول ولا قوة إلا بالله ، نحن غير قادرين ؟؟ وهم قد أخرجوا إلى الوجود أصلاً من أجل القيام بهذه التكاليف ؟

أليس المعقول أن ينتظروا الإزالة ؟

أما حسابهم يوم القيامة فشئ آخر .

أليست الإزالة هى الحل الوحيد فى شأنهم ؟

ليأتى قوم غيرهم .

﴿ **وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم** ﴾

إن هؤلاء ـ نحن ـ أكثر الأجناس على وجه هذه الأرض ترشيحاً للإزالة ، لعدة أمور :

أولاً : لأننا إنما خرجنا على ظهرها وارتفع ذكرنا فيها لمهمة خاصة هى القيام برسالة الإسلام .

﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس .. تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر** ﴾ فعندما نتخلى عن هذه الرسالة ـ ونحن نكاد نفعل ـ يزول سبب وجودنا ، وتذهب شراذم بددا ، فى طرائق قددا .

ثانياً : لأننا لو بقينا وانتصرنا على أعدائنا بنصر الله لكان فى ذلك نصر للزيف الذى نحن فيه ، وإعلاء لشأنه ، وهذا لا يمكن أن يكون ، لأنه لا يجوز فى حق كماله تعالى .

ثالثاً : لأننا بخلاف أعدائنا ، لا نحن عملنا من أجل الدنيا كما يعملون ، فننال وعد الله كما ينالون ﴿ **من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون** ﴾ .

ولا نحن عملنا من أجل الآخرة ، كما عمل بناة الأمة الإسلامية ، فننال وعد الله كما نالوا ﴿ **وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا، يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً** . ﴾ .

إننا أولى الناس بالإزالة لولا ...

لولا ضمان من وعد الله لبقية تبقى .

هى التى سيوكل إليها بناء الحضارة الإسلامية ، ووراثة الحضارة الغربية المتداعية .

فى رواية لمسلم بسنده عن ثوبان قال قال رسول الله ﷺ : " إنى سألت ربى لأمتى ألا يهلكها بسنة عامة [1] .. وألا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم [2] وإن ربى قال : يا محمد إنى إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد ، وإنى أعطيتك لأمتك : ألا أهلكهم بسنة عامة ، وألا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم ، يستبيح بيضتهم ، ولو اجتمع عليهم من بين أقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ، ويسبى بعضهم بعضاً .) .

---

[1] أى كارثة عامة

[2] أى جماعتهم